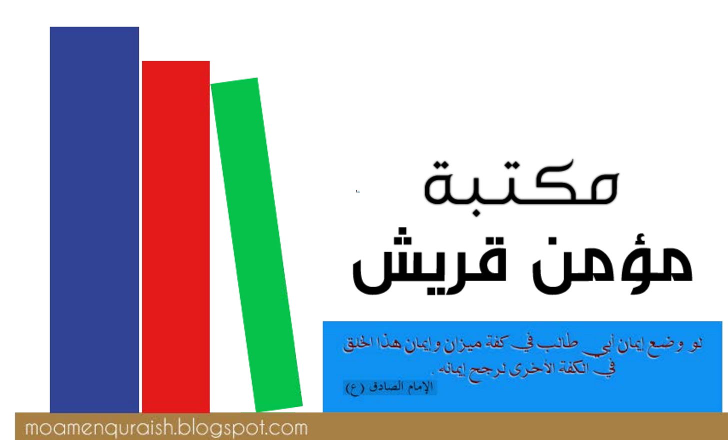
قيم أخلاقية في فقه الإمام جعفر الصادق

محمد جواد مغنية

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

محمد جواد مغنية

قيم أخلاقية في فقه الإمام جعفر الصادق

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطبعة الأولى

دار التعارف للمطبوعات

بيروت - لبنان

شارع سورية - بناية درويش - طابق الثالث

ص. ب ٨٦٠١ تلفون ٢٤٧٢٨٠

كلمتنا

يمثل الفقه الإسلامي ، شريعة الله في الأرض ، ومنهاج الإنسان في الحياة . ولا يستطيع الباحث الـكريم ، أن يدرك صواب وعمق هـذا القانون الفقهي ، إلا إذا أدرك حقيقة الإنسان ، وابعاده النفسية ونزعاته الغريزية الفطرية . ولـكن المتتبع لآراء المفكرين ، والمعتكف على الدراسة والبحث والفكر ، قد يلتفت إلى معطيات الفقه ، الاخلاقية التي تنعكس على سلوك الإنسان ومشاعره وجوارحه . ومن هـذه الفئة المنهمكة في مختلف قضايا المعرفة ، الـكاتب الإسلامي الشيخ محمد جواد مغنيـة الذي انفق حياتـه في مواصلة العلم والدرس والكتابة .

وقد وافى المجتمع الإسلامي بـكتاب آخر ، صغير في حجمه ، كبير في عطاءه ومدلوله ، يكشف عن اشراقة جديدة للفقه الإسلامي ، على هذا الإنسان ، ويبرز سموه

اشارة خاطفة

بسم الله والحمد لله وصلى الله على محمد وآله الأطهار

وبعد : فإني أضيف هذا الكتاب الجديد : « قيم أخلاقية في فقه الإمام جعفر الصادق » (ع) إلى أخ له ، طُبع ونفد منذ أعوام ثم طبع ونفد أيضاً ، وهو كتاب « مفاهيم انسانية في كلمات الإمام جعفر الصادق » (ع) ويلتقي الكتابين على صعيد واحد، والفارق أن كتاب « المفاهيم » ومضات أخلاقية واجتماعية ، وكتاب « القيم » مسائل فقهية .

وهو سبحانه المسئول أن يشملنا بدعاء الأئمة المعصوم (ع) : « **رحم الله عبداً أحيا أمرنا** .

وعندما قيل : وكيف يحيي أمركم ؟ —

قالوا : « **يتعلم علومنا ، ويعلمها الناس** ، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا » ، ولا بد أن يتضح للقارىء أننا في أمس الحاجة إلى هذا التعلم والتعليم . والسلام على من قرن سبحانه موالاته بموالاتهم ، وأناط معاداته بمعاداتهم .

محمد جواد مغنية

لا ايمان بلا اخلاق

حديث اهل البيت

كل أحاديث أهـــل البيت (ع) وأقوالهم تقوم على أساس الأخلاق ومكارمها ، ومن نسب إليهم قول لا يتفق مع مبـــدأ أخلاقي وهدف إنساني فهو مفترٍ كذاب . قال الإمام الصادق (ع) :

« ان لكلامنا حقيقة ، وأن عليه لنورا ، فما لا حقيقة له ولا نور فذلك قول الشيطان ..

نحن لا نقول : قال فلان وفلان .

وانما نقول :

قال الله ورسوله ...

ان حديثي حديث أبـي ، وحديث أبـي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين ، وحديث الحسين حديث الحسن ، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين ، وحديث

أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ ، وحديث رسول الله هو قول الله » .

وليس هذا مجرد كلام ودعوى من الإمام الصادق (ع) وإنما هو قول القرآن الكريم ، ومنه الآية ٣٣ من الأحزاب :

« إنمّا يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكُمُ الرِجّسَ أهلَ البَيتِ ويُطَهِركُمْ تَطْيراً » .

وقول السنة النبوية ومنها :

« **تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي** »[1].

وأعطف على ذلك تاريخ أهل البيت الناصع ، فانه الدليل الطبيعي القاطع على أنهم معدن العلم والتقى ، وسبيل النجاة والهدى ، والعروة الوثقى ، وما قرأه عالم منصف الا وأحس من اعماقه أنه امام عظمة جدهم الأكرم ﷺ .

---

(١) انظر كتاب دلائل الصدق للمظفر ، وكتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزأبادي ، فكل مصادرهما من كتب السنة .

الايمان عند أهل البيت

لا يختص الإيمان عند أهـــل البيت (ع) بالقلب وحده ، بل يعم ويشمل وظائف أعضاء الجسم الانساني بالكامل ، فقـــد جاء في اصول الكافي ج ٢ الطبعة الثالثة ص ٣٣ وما بعدها خبر مطول عن الامام الصادق يحدد الايمان بآثاره وثماره، وأن هذه الآثار والثمار تظهر واضحة في كل عضو من أعضاء الانسان . والبيان كالاتي مع التنبيه إلى أن كل جملة بين قوسين فهي من قول الإمام (ع) ، وما عداهـــا شرح لها وتوضيح .

ايمان القلب

١ — (فرض الله على القلب الإيمان الإقرار والمعرفة بأن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله) ﷺ . القلب محل القبض والبسط ، وموضع الخوف والرجاء ، والمنبع الأساس للإرادة الباعثة على العمل والنشاط . ومن أظهر سمات القلب المؤمن بالله ورسوله أن ينشد الحق ، ويرغب في عمل الخير ، ويضحي بكل عزيز من أجله ، وأن ينفر من الشر والباطل وإن كان براقا ومغريا . وهذا القلب هو المعني بقوله تعالى :

« ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن » .

ولمناسبة الحديث عن إيمان القلب نذكر عبارة لغاندي بالمعنى لا باللفظ : من قطعك إربا إربا لا يسلب منك الحياة ما دمت ثابتا على إيمانك بالله ، والذي يسلب

حيـــاتك حقاً هو الذى تبيعه دينك وضميرك . وقـــال في كتاب هذا مذهبي :

إن الله يتجلى في كل شيء حتى في إلحاد الملحدين .

يريد بذلك أن ما من أحد الا ويؤمن بإله تلقائيا ، ولكن يفسره بتفسيره الخاص ، فبعضهم يفسره بالإنسانية ، وآخر بالحزب الذي ينتمي اليه ، وثالث بمنافعه ! . وإله الأهواء أقوى سلطانا على النفوس الضعيفة مـــن كل قوي ، وإليه أشارت الآية ٢٣ الجـــاثية : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؟ » وكم مؤمن بالله نظرياً يتجاهـــله وينساه عملياً إذا رأى الدينار والدولار ، ويبرر عمـــله بالوحي ، ويضفي عليه قداسة الدين والإيمان !

ايمان اللسان

٢ – (فرض الله على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد وأقربه) .

إيمان اللسان أن يعلن أولاً وقبل كل شيء الاعتقاد بالله والتسليم لأمره والتوكل عليه وحده ، قال سبحانه : « وَمَنْ أَحسَنُ قَولاً ممنْ دعَا إلىَ الله وَعمِلَ صَالحا وَقَالَ : إنّني مِن المُسلِمينَ – ٣٣ فصلت » فإعلان الإسلام شرط أساس في وجوده ، والمسلمون يُعبرون عن هذا الإعلان بالشهادة ، ومن أجل اعلانها شيدوا المساجد ، ورفعوا المآذن ، ومن كتم وأخفي كلمة الشهادة بلا مبرر فما هو من المسلمين في شيء دنيا وآخرة ، أما الهدف والمغزى من هذا الاعلان فهو أن يعرف الناس ، كل الناس ، أن الإسلام هو دين الله وتوحيده ، وأن محمدا عبد من عبيده أرسله سبحانه ليحرر الإنسانية من الإستغلال والخضوع لأى مخلوق ، وأنه لا كبير إلا الله وحده ، وأن يسير بالعباد على طريق السعادة والعزة والكرامة .

وأيضاً من إيمان اللسان أن يقول الحق والصدق ، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصلح ذات البين ، وينشر العلم والمعرفة ، وأن يكف عن الأذى والكذب والغيبة والنميمة والجدال والثرثرة بغير علم. قال افلاطون :

« الخسيس من كثر كلامه فيما لا ينفع، وأخبر بما لا يُسأل عنه ولا يراد منه » .

وفي أصول الكافي عن رسول الله ﷺ :

« هل يكب الناس على مناخرهم في النار الا حصاد ألسنتهم » .

ايمان السمع

٣ - (فرض الله على السمع أن يتنزه عن الإستماع الى ما حرم الله)

إيمـــان السمع يكون بالإصغاء إلى أحسن القول ، والتصامم عن قول السوء ، والبعد عن الخوض في الباطل ، قال سبحانه : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ - ١٨ الزمر .. - . والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ - ٣ المؤمنون . - . خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ - ١٩٩ الاعراف » أي ابتلـــع أخطاء الجهلة والسفلة ، ولا تسمم قلبك بالتفكير في أقوال قوم لا يفقهون .

وقال الإمام الصادق (ع) :

« من قال لك :

إن قلت واحدة سمعت عشرا

فقل له : إن قلت عشرا لم تسمع واحدة » . ومرّ

حكيم بسفيه فشتمه ، فأعرض الحكيم عنه ولم يمتعض . وحين قيل له :

لمَ لا تبالي ؟

قال : لأني لا أتوقع أن أسمع من الغراب تغريد البلابل.

وايضاً من إيمان السمع أن يكتم المرء على أخيـــه ولا يذيع أي قبيح يسمعه منه أو عنه، قال الإمام الصادق (ع) :

« أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الــكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بهـــا »

ومراد الإمام بأدنى الكفر ، القرب منه، قال سبحانه : « همُ للكُفرَ يَومئذٍ أقرَبُ مِنُهمُ للإيمـــانِ — ١٦٧ آل عمران » . هـــذا الى أن الكفر قد يستعمل في مجرد الترك .

ايمان البصر

٤ — (فرض الله على البصر أن لا ينظر الى ما حرم الله عليه)

قال تبارك وتعالى :

« قُل لِلمؤمِنينَ يَغُضُوا مِن أبصَارِهم وَيحَفظُوا فُروُجهُم — ٣٠ النور .. وَقُل لِلمُؤمِنات يغْضُضنَ من أبصارهنَ ويحفَظنَ فرُوجهنَ — ٣١ النور .. إنَّ السَّمعَ والبَصرَ والفُؤاد كلُ أولئكَ كانَ عَنهُ مَسئُولاً — ٣٦ الإسراء » ايمان البصر بالغض عن محارم الله ، فإن النظرة تزرع الشهوة في القلب ، وهي مبدأ الفاحشة ، قال شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وفي الحديث : « **لك النظرة الأولى ، وعليك الثانية** »

وقال الإمام الصادق (ع) : « **النظر سهم من سهام إبليس** » . وأيضاً من إيمان البصر أن يرى من عجائب خلق الله وبدائع صنعه الكثير ، فيعلم ما ينبغي أن يعلم من قدرته وحكمته ، بالأضافة إلى أنه لولا العقل والبصر لم يكن للعلوم والحضارات ولا للحياة عين أو أثر .

ايمان اليد

٥ — (فرض الله على اليد أن لا يبطش بها فيما حرم الله ، وأن يبطش بها فيما امر الله ، وفرض عليها الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والطهور والصلاة) .

إيمان اليد أن تجاهد وتنتج وتبذل فيما ينفع ولا يضر وتحجم عن المحرمات والمآثم . وجاء في كتاب الانسان ذلك المجهول ، للطبيب الفرنسي الكسيس كاريل. ترجمة شفيق اسعد فريد ، كلام حول اليد نقطف منه ما يلي :

« تعتبر اليد عملاً رائعاً ، فهي تحس وتعمل في وقت واحد .. انها قادرة على صناعة الأسلحة والأدوات كمطرقة الحداد وفأس قاطع الأخشاب ومحراث الفلاح وحسام فارس القرون الوسطى وعجلة الطائرات الحديثة وريشة

الرسام وقلم الصحفي وخيوط
ناسج الحرير .. انها قادرة على
القتل والرحمة معاً وعلى السرقة
والبذل ، وعلى بذر الحبوب في
الحقل وإلقاء القنابل فوق
الخنادق .. وأيضاً لليد الفضل
الأكبر في سيادة الانسان على
الطبيعة وفي نمو العقل »

لأن الانسان إذا بلغ أفقا من المعرفة بتجربته ونشاطه تكشفت له آفاق جديد ، ومنها ينتقل إلى غيرها . وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

ايمان الرجلين

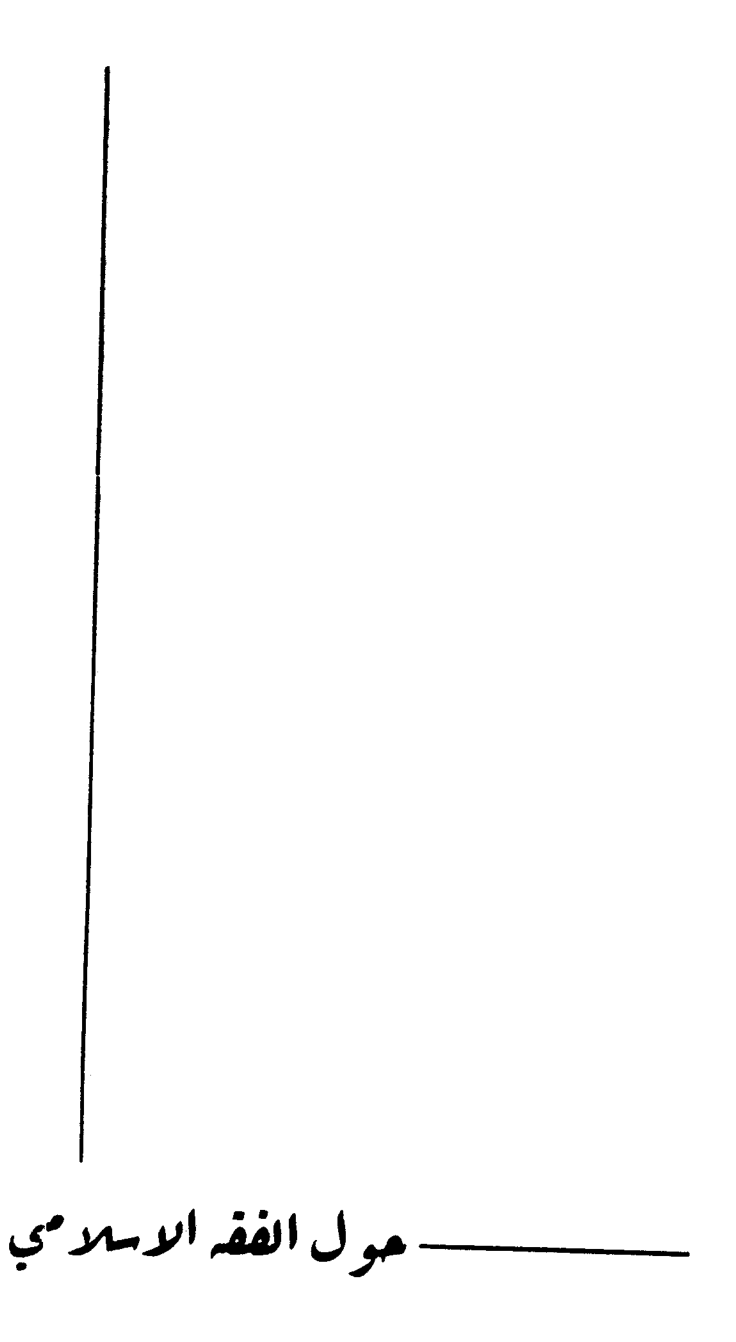
٦ - (فرض الله المشي على الرجلين الى طاعته لا إلى معصيته)

قال سبحانه : « وتَشهَدُ أرجلُهم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون - ٦٥ يس » .

بالأرجل نمشي فوق اليابسة ، ونعوم على وجه الماء ، ونتسلق الأشجار والجبال .. إلى غير ذلك من الأحوال .

وبعد ، فإن هذه الرواية عن الإمام الصادق (ع) تقدم لنا أسمى الصور الانسانية ، وأرقى النماذج الأخلاقية حيث تعتبر الدين مرادفا لمكارم الأخلاق . ولا ترى الانسان صادقاً في إيمانه بالله إلا إذا تخلص من الاستئثار والحقد والأنانية ، وشعر بالواجب والمسئولية عن غيره ، وأحتفظ بتوازنه العقلي والعاطفي والعضلي بحيث يستعمل كل جارحة من جوارحه ، وكل غريزة من غرائزه - في الوظيفة الخاصة بها ، ولا تتجاوز الحد المقرر لها .. هذا هو الإسلام كما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

وأخيراً لو فهم الناس الإسلام في ضوء هـــذه الرواية وغيرها من آثار أهل بيت النبوة (ع) لوجدوا فيه الحل السليم لكل مشكلة من مشكلات الحيـــاة من نوع كانت وتكون .



حول الفقه الاسلامي

نصوص وأسرار

للفقه الإسلامي نصوص من كتاب الله وسنة نبيـــه ، وأصول وقواعد تنتهي اليهـا ، وأيضاً لكل حـكم من احـــكام هذا الفقه سر وعـــلة توجبه كحفظ الأمن والنظام أو حفظ التوازن في الحقوق والواجبـــات أو جلب المصلحة والمنفعة أو درء المفسدة والمضرة قبل وقوعها إن أمكن وإلا فعلاجها بالحكمة بعد أن تقع،إلى غير ذلك مما فيه يسر وخير للفرد أو الجماعة .

أما النصوص فهي على أنواع ، وليست بكاملها انشاء وتشريع لحـكم جديد . والتفصيل كالآتي :

من صنع الشارع وحده

١ – كل من الحكم وما تعلق به من صنع الشارع وحده واختراعه كالعبادات ، ومن هنا كانت توقيفية حكما وموضوعا ، لا شأن فيها إطلاقاً لعرف أو عقل لأنه قاصر بذاته عن معرفة السر لشكل العبادة وهيئتها ،أجل الشرط الأساس أن لا تتناقض العبادة وتصطدم مع العقل شكلاً وأساسا لأن الإسلام في جوهره دين العقل بأوسع معاني الكلمة خلافا للحنابلة وابن تيمية الذي اعتبر الدين فوق العقل ، وحجر عليه أن ينظر في شيء من أشياء الدين وقضاياه ، وحصر مهمته بالأمور الدنيوية فقط كالفلاحة والتجارة والطب والهندسة .

ويلتقي ابن تيمية في قوله هذا مع الكثير من رجال الكنيسة الذين قالوا : إن موضوع الدين شيء ، وموضوع المعرفة شيء آخر « وأن كل محاولة لعقنلة الدين والإيمان تنتهي باقـلاع المسيحية التي تقول : الدين فوق العقل .. عليك ان تؤمن بلا عقل ، بل ان الايمان يزداد كمالاً

وسمواً كلما ازداد معارضة للعقل .. وإذن يجب إغلاق فم العقل بالعقوبة ، لأن العقل لا يقبــل الحقيقة الدينية التي تقـول :

أن الرجل البسيط المتواضع هو
ابن الله ، وأن مريم العــذراء
هي أم الله [1] .

وهذا هو المنطق المقلوب بالذات ، فإن جميع الرسل والأنبياء والعلماء والعقلاء ، يخضعون الدين والايمان للعقل والبرهان ، وهذا المنطق يعكس الواقـع ، ويُخطيء العقل بالدين ، ويتجاهل أن فصل الدين عن العقل معناه عزله عن الحق والخير والواقع .

---

(1) من مقال بعنوان كيركجور فــي قبضة هيجل ، نشرتــه مجلة الفكر المعاصر العدد المؤرخ سبتمبر ايلول سنــة ١٩٧٠ . وفيه ذكر المصادر .

الحكم الشرعي وافعال العباد

٢ - الحكم من صنع الشارع وإنشائه ، وما تعلق به من أفعال العباد وشئونهم العادية كتحريم الغش والزنا ، ووجوب الوفاء بالدين والعهد ، وهذا القسم هو المراد من الجملة الشائعة الذائعة على ألسنة العلماء والطلاب، وهي « الأحكام تتبع الأسماء » ومعناها أن الأحكام الشرعية — ما عدا العبادات — تتعلق بالمعاني والمسميات العرفية ، ولا صلة لهذه المسميات بالشارع ولا بالمختبرات والدقة العقلية .

امضاء وتقرير

٣ ــ الحكم المنصوص ليس من صنع الشارع وانشائه ، وانمــا هو مجرد تعبير وتقرير لما اعتاده الناس من التعامل والتعاون ، وقــد صبه الشارع في صياغة دينية وقانونية لتــكون له قوة مقدسة وملزمة ، أجل للشارع أن يقلم ويطعم، بل ويزيل وينسخ، ولــكن من باب الأرشاد إلى المصلحة والبعد عن المفسدة تماماً كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الشريعة الخاصة ٤ ـ الحكم من شريعة خاصة لبيئة معينة وقوم دون قوم كالشريعة اليهودية ، ومنها قوله تعالى :

« وعَلى الَّذينَ هَادُوا حَرَّمنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حَرَّمنا عَليْهِمْ شُحُومَهُما إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهورهُما أو الحَوايا أو مَا اختَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغيِهِمُ ـ ١٤٦ الانعام » وقوله : فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وبِصَدِّهِم عن سَبيلِ اللهِ كَثيراً وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقَد نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِم أموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ ـ ١٦٠ النساء » .

فهذا النص من شريعة تتناسب مع طبيعة بني اسرائيل الذين يؤمنون فيما يؤمنون بأنهم شعب الله المختار وأن اليهود هم الدليل الوحيد على وجود الله ولولاهم لما كان لله آية ظاهرة تدل على وجوده ، ومعنى هذا أن وجوده

سبحانه يرتبط بوجود اليهود ! . تعـــالى الله عن ذلك علواً كبيرا [1] .

(1) من مقال علمـــي ومفصل ومدعم بالشواهـــد والمصادر بعنوان التوراة ، نشرته مجلة المجلة المصرية في عددها المؤرخ يناير كانون الثاني سنة ٩١٧٠ .

القانون الطبيعي

٥ – كل ما هو ضروري لوجود الانسان وحياته من حيث هو انسان مهما تطور في أفكاره ومعيشته – فهو قانون وحق طبيعي لا يقبل النسخ لأنه قسر وحتم ، ولا الجعل والتشريع لأنه تحصيل للحاصل ، وعليه فإذا ورد في شريعة سماوية أو أرضية نص على حكم أو حق طبيعي يكون هذا النص صورة تعبيرية عن الواقع، وليس تشريعاً وانشاءً لشيء جديد . وفيما يلي نعرض بعض الأمثلة لمجرد التوضيح .

قال سبحانه : « يَا أيهُـا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرضِ حَلالاً طَيِّباً – ١٦٨ البقرة .. وأرعَوا أنعامكُم – ٥٤ طه » ومن طبيعة الانسان أن يأكل والحيوان أن يرعى، وحقه في ذلك تماماً كحقه في القعود والنهوض وشرب الماء واستنشاق الهواء ، ولا أحد يمنعه من ذلك أو يمنحه إياه.. أجل تسوغ نسبة الأحكام الطبيعية إلى الله تعالى من باب التكوين والامتنان لأن كل شيء من صنعه وخلقه . وقال

عز من قائل : « وَلا تَزِرُ وَازِرة وِزرَ أُخرى– ١٦٤ الأنعام .. لا يُكلِّفُ الله نَفسَاً إلاّ مَا أتاهَا– ٧العلق »
وإذا امتنع في شريعة العدل والرحمة التكليف بغير المقدور ومؤاخذة البريء الطيب بذنب الخبيث المجرم – يمتنع أيضاً رفع هذه المؤاخذة وذاك التكليف بحكم البديهة إلا من باب التعبير والتقرير ، أو من باب إسناد الشيء إلى سبب الأسباب الذي خلق الطبيعة والكون بمن فيه وما فيه من سنن وقوانين .

واستدل الفقهاء على صحة التعامل بين الناس بقوله تعالى : « يَا ايها الذّين آمنَوُا لا تأكُلُوا أموالَكمُ بِالبَاطِلِ إلاّ أنْ تَكوُنَ تِجارةٌ عن تَراضٍ مِنكمُ – ٢٩ النساء » ثم استدلوا على وجوب الوفاء بالتعامل والإلتزامات بقوله تعالى : « أفُوا بالعقُودِ – المائدة » ولكن الشرائع الوضعية قديمها وحديثها تقول بوجوب الوفاء بالعقود والإلتزامات ، ولا تستدل بآية أو رواية ، ذلك بأن وجوب الوفاء بالتعامل وظيفة اجتماعية لا كيان للحياة إلا به ، وعليه يكون قوله تعالى : « إلاّ أن تكوُن تِجارَةٌ عَن تَراض وأوُفوُا بالعقُودِ » مجرد حكاية عن الواقع . وأمثلة هذا الباب في القرآن الكريم ليست بالشيء القليل .

وكذلك شأن السنة النبوية مثل :

« على اليـد مـا أخذت حتى
تؤدي .. ولا ضرر ولا ضرار ..
ورفع القلم عن الصبي حتى يحتلم ،
وعن المجنون حتى يفيق ، وعن
النائم حتى يستيقظ » .

إلى غير ذلك من النصوص التي صاغت الحقوق الطبيعية في أوامر دينية وقواعد شرعيـة لتصبح قانوناً مقدساً قوي الأركان شكلاً وواقعـاً لا تتلاعب بـه أيـدي العابثين والمنحرفين ، وبتعبير عالم معاصر أن الصفة الدينية في الفقه الإسلامي تجعله محل الاحترام تتمناه اليوم القوانين الوضعية .

متى تتغير الأحكام

من خصائص الأحكام الطبيعية أنها ثابتة ودائمة تصلح لجميع الناس والأمم على السواء في كل زمان ومكان ، ولا تقبل التغيير بحال بعد الفرض بأن طبيعة الانسان تقتضيها من حيث هو انسان ، وعلى هذه الأحكام وحدها يُحمل الحديث النبوي الشريف:

« حلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم حلال إلى يوم القيامة ، وحرام محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرام إلى يوم القيامة » .

أما الأحكام الذي تقبل التغيير والتبديل فهي ترتبط بأوضاع الجماعة ، وتدور مدارها وجوداً وعدما ، على أن تكون المباديء الشرعية العامة هي الهادي والدليل الذي يرسم الخطوط العريضة للتبديل أو التعديل .. وقد يحدث هذا الأختلاف من فئة إلى فئة ، ومن أسرة إلى أسرة ، بل من انسان إلى انسان ، ونكتفي هنا بالإشارة إلى مثالين الأول حكم الإنفاق على الزوجة ، قال سبحانه : « لِيُنفِقَ

ذو سَعَةٍ من سَعَتِهِ ومَنْ قُدِرَ عليهِ رزقُهُ فلْيُنفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ – ٧ الطلاق » . المثال الثاني حكم الجهاد والقتال حيث نهى الله المسلمين عنه وهم مستضعفون بمكة المكرمة ، وأذن لهم به وهم اقوياء بالمدينة المنورة .

الأخلاق الشريعة

أبداً لا علم ولا دين بحق من غير قيم خلقية وروحية ، فليس العلم مجرد حقائق تُكتشف ، ثم تحفظ عن ظهر قلب أو تُؤلف في كتاب ، وإنما هو آلة تنفع الناس أو دواء يشفي من الأمراض أو مصنع ينتج الكساء والغذاء أو أيّ شيء يخدم الانسان دنيا وآخرة ، وكذلك الدين ليس مجرد إيمان وعقيدة ولا تهليل وتكبير يُردد على حبات المسابح ، بل هو دروس في الصدق والإخلاص والجهاد لحياة أفضل وأكمل .

واتفق أهل الاختصاص أن الشرع الإسلامي قد سبق الشرائع بكاملها إلى مراعاة القيم الاخلاقية واعتبارها مقياساً لجميع قواعده وأحكامه .

ونحاول فيما يأتي أن نعرض بعض الأمثلة من فقه آل البيت (ع) كشاهد على هذه الحقيقة لأنه المرآة الصافية التي تعكس الإسلام على حقيقته عقيدة وشريعة .

ثلاثة امثال

« **إن خانك فلا تخنه** » قال رجل للإمام الصادق (ع) : إن يهودياً خانني بألف درهم وحلف ، ثم وقع له عندي مال ، فهل آخذه عوضاً عن مالي ؟

فقال له الإمام : إن خانك فلا تخنه .. ولا تدخل فيما عبته فيه .. ولولا أنك رضيت بيمينه فأحلفته لأمرتك أن تأخذ مما تحت يدك ، ولكنك رضيت ، وقد مضيت اليمين بما فيها .

نهى الإمام السائل أن يأخذ العوض عن ماله بعد اليمين — لسببين خُلقيين :

وأشار إلى الأول بقوله :

« إن خانك فلا تخنه ، ولا تدخل فيما عبته فيه » .

ومثله في نهج البلاغة : **أكبر العيب ان تعيب ما فيك مثله ..**

والخيانة من أمهات الرذائل الإخلاقية لأنها ظلم ونفاق وخسة وضعة ، بل الخيانة كفر كما يؤميء هذا الحديث الشريف : « **من غشنا فليس منا** » وفي ثانٍ : **ان الله آلى على نفسه ان لا يجاوره خائن** . وأصرح من هذا وذاك ما جاء في سفينة البحار عن النبي الكريم ﷺ :

من خان أمانة في الدنيا ولم يردها إلى أهلها ، ثم أدركه الموت مات على غير ملتي .

وتسأل : إن الخيانة جريمة كبرى ، ما في ذلك ريب ، ولكن أخذ المال من الخائن الغاصب عوضاً عن المال المغصوب ليس من الخيانة في شيء . بل هو استيفاء ومقاصة ، واليمين ليست طريقاً لإثبات الحق أو نفيه ، ولا هي إسقاط له ولا إبراء للذمة ، وإنما تقطع الخصومة والشغب وكفى ، أما قول الإمام : مضت اليمين بما فيها فمعناه أن المدعي وان كان محقاً في دعواه فليس له أن يقيم الدعوى على خصمه بعد أن رضي بمينه ، أما الحق فيبقى راسخاً في ذمة الحالف الكاذب كما أشرنا ، ولذا يجب عليه أن يتوب ، ويرد الحق إلى أهله ؟

الجواب :

لا معنى لرضا المدعي المحق ، هنا بيمين المنكر المبطل إلا أن المدعي قد فوض أمر

الحالف إلى الله سبحانه ، ومن هنا اتفق الفقهاء أن الحلف يجب أن يكون بلفظ الجلالة لحديث « من كان حالفاً فليحلف بالله أو يذر » . وعليه يكون الأذن بالمقاصة ، والإستيفاء في هذا الفرض — إذناً بنقض التفويض إلى الله بعد إبرامه . وهذا نكث صريح .

السبب الخلقي الثاني قول الإمام (ع) : « ولكنك رضيت ، وقد مضيت اليمين بما فيها » . متى رضى المدعي بيمين المنكر فعليه أن يلتزم بآثارها ، وأظهر هذه الآثار إقتلاع الخصومة من جذورها وعدم مسئولية المنكر أمام أحد غير الله سبحانه .

ولو فُسح المجال للمدعي أن يلاحق الحالف لاستمرت الخصومة وعمت الفوضى ، وكانت اليمين والقضاء لغواً وعبثاً .

جاهدوا ولا تغدروا :

قال الإمام الصادق (ع) : « كان رسول الله إذا بعث سرية دعا أميرها ، فأجلسه الى جنبه ، وأجلس أصحابه بين يديه ، ثم قال :

سيروا بسم الله وفي سبيل الله

وعلى ملة رسول الله ، ولا
تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا
تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا
اليها ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ،
ولا صبياً ولا امرأة » .

الحرب شر بشتى أنواعها ، لأنها نار ودمار على الغالب والمغلوب .. فإن كان ولا بد من العنف للقضاء على العنف، وجب الجهاد ولكن على أساس القانون والمبدأ الخلقي الذي تصان به دماء الأبرياء وأعراضهم وأموالهم حتى تقدر جناية الجاني بأسبابها وعقوبته لا تتجاوز الحد المشروع ، قال عز من قائل :

« وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ — ١٠٦ البقرة ..

فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ — ١٩٣ البقرة » .

وبالإجمال ، فإن قول الإمام الصادق للمحاربين بلسان جده الأكرم ﷺ :

« سيروا بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله » يعم ويشمل مكارم الأخلاق بالكامل لأن معنى سبيل الله

وملة رسوله صفاء النفس وطهارتها وسيطرة القانون الخلقي على سلوكها وتحررها من النزوات الشهوات . وقد اعترف الغربيون المنصفون بهذه الحقيقة ، ومن ذلك — على سبيل المثال دون الحصر — ما جاء في كتاب مجالي الإسلام ص ١٠٤ طبعة سنة ١٩٥٦ ما نصه بالحرف : قال أرنست رينان :

« لم يظهر قط فاتحون بالغواني
التسامح والحلم نحو المغلوبين
كما صنع العرب » .

الدين والتطبيب

كل ما لا تتم الحيـــاة إلا به فهو فرض بحكم الطبيعة والبديهة ، وليس للشارع – بما هو شارع – أن ينهي عنه حيث لا يمـــكن الأمر به إلا على سبيل الإمضاء والتقرير كما سبقت الإشارة ، كالطب والهندسة والتجارة والصناعة والزراعة .. ونُسب إلى متحجر أو متجر أن الطب والتطبيب بدعة وضلالة ! . وليس من شك أن المبتدع هو الذي يقول بلا حجة ودليل ، والمضلل من يضل الناس بجهله أو نفاقه .

وقد يكون الجهل عذراً في الظنيات والأمور الاجتهادية التي تقبل الجدال والنقاش ، أمـــا المسلمات الأوليـــة فهي راسخة واضحة ، ولا عـــذر فيها لأحد حيث يستوي في معرفتها الغبي والعبقري . وإنْ قال قائل :

إنّ البديهيات من الأمور النسبية ، فقـــد يكون الشيء واضحاً عند زيد وخفيا عند غيره . قلنا في جوابه :

أجل ولكن العلم بوجوب التطبيب عنـــد الضرورة من

الـدسات المطلقة تماماً كالطعام للجائع والشراب للعطشان ..
وإن عاند وكابرمن في عقله أو قلبه مرض تلونا عليه مايلي:

١ ـ هل من عاقل يرتاب في أن الله سبحانه يجري الأمور على اسبابها من وجود الانسان والحيوان والنبات إلى وجود البحار ونزول الأمطار، إلى المسكن والغذاءوالكساء، ومن العلم والمعرفة إلى الدين والإيمان إلى ما لا نهـايه ؟ والدواء أحد الاسباب ، ما في ذلك ريب .

٢ ـ اتفقت المذاهب الإسلامية بالـكامل على وجوب دفع الضرر عن النفس تماماً كما أجمعت على حرمة إلقائها إلى التهلكة . قال الشهيد الثاني في المسالك باب الأطعمة :

« يجب حفظ النفس من التلف ، وتركه محرم ، وهو أغلظ تحريما من الخمـر ، فـإذا تعـارض التحريمان وجب ترجيح الأخف وترك الأقوى » .

٣ ـ أن الاستشفاء بالدواء من الله سبحـانه لأنه هو خالق كل شيء فقد روى صاحب الوسائـل ج٢ ص ٦٣٠ طبعة سنة ١٣٨٣ هـ عن الإمام الصادق (ع) :

« أن نبيـاً من الأنبياء مرض ، فقـال : لا أتداوى حتى يكون الذي أمرضني هو الذي يشفيني .

فأوحى الله إليه : لا أشفيك
حتى تتداوى ، فإن الشفاء مني » .

وأيضاً في ص ٦٢٩ من الجزء المذكور عن الإمام الصادق (ع) :

« ان تارك شفاء المجروح من جرحه شريك جارحه لا محالة » . وفي سفينة البحار عن الصادق :

« لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة ، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً :

فقيه عالم ورع ، وامير خير مطاع ، وطبيب بصير ثقة » .

وهذه النصوص ومثلها كثير لا تقبل تصرفاً ولا تأويلاً ولا جدالاً ومراء . ومن هنا قال الشيخ المفيد في شرح عقائد الصدوق ص ٦٩ طبعة ثانية :

« الطب صحيح ، والعلم به
ثابت ، وطريقة الوحي ، وإنما
أخذه العلماء عن الأنبياء » .

وألف العلماء العديد من الكتب في طب أهل البيت (ع) منها كتاب طب النبي لابن قيم الجوزية (ت سنة ٧٥١ هـ) وكتاب طب الأئمة أشار اليه صاحب الوسائل، ونقل عنه في باب الأطعمة(١) .

(١) حتى الحيوانات تعالج امراضها باعشاب معينة . انظر كتاب الحيوان للجاحظ والجزء الأول من الاقناع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي : فصل بعنوان الليلة العاشرة

أما قوله تعالى : « وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين ٨٠ الشعراء » فالمراد به الشفاء بما خلق الله من الدواء ، قال رسول الله ﷺ :

« إن لكل داء دواء ، فإذا أصاب الدواء الداء برئ بإذن الله » .

وهكذا نرى الإسلام يراعي سلامة الأبدان كما يوجب العناية بسلامة الروح ، وأسقط الحرام عن المضطر بنص القرآن الكريم : « فَمَنْ اضطُرَّ غَيرَ باغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ـ ١٧٣ البقرة » . وإذا أحل سبحانه الحرام عند الضرورة فهل يمنع المحتاج ، عن الحلال مع الإضطرار اليه ؟

أما التوكل على الله والتفويض اليه فمشروط بالسعي وبذل الجهد كما جاء في الحديث الشريف : « **إعقلها وتوكل** » :

وبعد ، فإن بعض المعممين المتطفلين يتصورون الدين كما يريدونه لا كما أراد الله ورسوله .. والعجب أن هذا النوع من الشواذ يصخب ويغضب على الذين يفهمون الدين على حقيقته . ويحكمون عليهم بالكفر أو الفسق !. وصدق الله العلي العظيم : « الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنيا وَهُم يَحْسَبُونَ أنهم يُحسِنُونَ صُنُعاً ـ ١٠٤ الكهف » .

الدولة

« المسيحية والدولة » الإنسان مخلوق من جسم وروح ، ومن واجب الأديان والفلسفات أن تضمن التوازن والانسجام بينهما ، ولكن الديانة المسيحية تحصر مهمتها ودعوتها في عمل الإنسان للآخرة فقط ، وتفصله عن الدنيا والطبيعة ، لا عن الدولة والسياسة وكفى .

فقد جاء في إنجيل متى الإصحاح السادس ما نصه بالحرف الواحد :

« لا تهتموا بما تأكلون وتشربون ولا بما تلبسون . انظروا إلى طيور السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها ، ألستم أنتم بالحري أفضل منها .. أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره ، وهذه

وهذه كلها تزاد لكم فلا تهتموا
للغد » .

وفي الإصحاح التاسع من هذا الإنجيل :

« يوجد خصيان خصوا أنفسهم
من أجل ملكوت السموات ، من
استطاع منكم أن يقبل فليقبل » .

أي يخصي نفسه ، وعلق فيلسوف على ذلك بقوله :
ان الأخلاق المسيحية هي تعبير عن انفصال الإنسان عن
نفسه وعن طبيعته وعن الطبيعة .

وفي إنجيل مرقس الإصحاح الثاني عشر :

« أعطوا ما لقيصر لقيصر وما
لله لله » .

وفي إنجيل متى الإصحاح الخامس :

« من لطمك على خدك الأيمن
فحول له الآخر أيضاً ، ومن
أراد أن يخاصمك ، ويأخذ ثوبك
فاترك له الرداء أيضاً ، ومن
سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه
اثنين » .

ولكـن كنيسة القرون الوسطى أو الكثير من رجالهـا تنكـروا للمسيحية وأناجيلهـا ، وربطوا الكنيسة بالدولـة والسياسة كما لو كانت الدولة مؤسسة دينية أو كانت الكنيسة دائرة حكومية ، وصار العديد من الأساقفة والموارنـة من كبار الملاك والاقطاعيين ، وكانت أملاكهـم التي حصلوا عليها بفضل مناصبهم تنتقل بالوراثة إلى أبنائهم وذريتهم ، وبعد التمدن الحديث في أوروبا والصراع الطويل ، بين الدولة والكنيسة ، تمّ الفصل بين الدين والسياسة ، وتُرك للكنيسة أمر الآخرة والمعاد ، وللدولة أمر الدنيا والمعاش .

ولكن أكثر المنتمين إلى الكنيسة أو الكثير منهم كانوا وما زالوا يقومون بدور العمالة لمصالح الاستعمار والصهيونيـة باسم التبشير للديانـة المسيحية ، أو باسم التعاون المسيحي اليهودي أو غيرهـا من الشعارات الكاذبة الخادعة ، ففي سنة ١٩٦١ انعقد مؤتمر مجلس الكنائس العالمي بمدينة نيودلهي وقرر استنكار العداوة لليهود ، ثم تطور هـذا القرار إلى وثيقة بابا رومـا سنة ١٩٦٥ بتبرئـة اليهود من دم المسيح على الرغم من النص الواضح الذي جـاء في فقرة ٢٦ من الإصحاح ١٧ من إنجيل متى !

وهكـذا انقلبت الكنيسة الغربيـة
على المسيحية والسيد المسيح (ع)
رسول المحبة والرحمة .. وتوطدت

أركان العلاقــة والصداقة بـين
الكنيسة والصهيونية .

والسبب الموجب - كما ظن الكثيرون - أن اسرائيـل قد أحسنت كل الإحسان إلى الكنيسة باعتدائها على فلسطين وأهلها وعلى الدول العربية المجاورة ، وغفرت لإسرائيـل فعلتهـــا الشنيعة في مقدســات السيد المسيح (ع) بالقدس القديمة وغيرها .

رئيس الدولة

فسرت آي الذكر الحكيم بالكامل وما فهمت من آية تحديداً واضحاً وكاملا لمفهوم الدولة ومقوماتها ، ولعل الحكمة من ذلك أن الشكل التنظيمي للدولة يختلف تبعا لتطور الظروف الاجتماعية فتعذر التحديد المطلق ، أجل لقد أوجب كتاب الله الولاية لأئمة الحق والعدل ، وأمر بطاعتهم وحرم معصيتهم . ونفى الولاية عن الظالمين ، وهدد وتوعد أتباعهم وأشياعهم ، وليس من شك أن هذا شيء ، وتحديد مفهوم الدولة شيء آخر ، وكذلك شأن السنة النبوية لا نص فيها على تعريف الدولة بحسب ظني وتتبعي .

أما بيعة أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يفهم منها معنى الدولة بالإضافة إلى أنها قضية خاصة استدعتها ظروف الإسلام والمسلمين في مكة . وقد يُظن أن أمر الدولة متروك إلى الناس (أي نظام ديمقراطي) بحكم القرآن لقوله تعالى : « وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ — ٣٨ الشورى »

ولكن الآيـة بعيدة الدلالة على ما نحن بصدده ، وإنمـــا هي مجرد تعبير وحكاية عما عليه طائفة خاصة من التعاون وتبادل الثقة ، وأبعد منها دلالة على الدولة قولـــه ، عز من قائل :

« وَشَاوِرْهُم في الأَمر ــ ١٥٩ آل عمران » .

كان النبي ﷺ يجتمع مــع الصحابة في المسجد ، ويشاورهم في مسائل تتصل بحياتهم الدنيوية إلا ما ينزل به الوحي ، ولكنه لم يضع قواعد للشورى يتبعها المسلمون من بعده كقانون الانتخابات في هذا العصر ــ مثـــلاً ــ قال الشيخ محمد عبده :

« لو وضع النبي ﷺ ، قواعد مؤقته للشورى بحسب حاجة ذلك الزمان لاتخذها المسلمون دينا ، وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ، وما هي من أمر الدين، وأيضاً لو وضعها من عند نفسه لكان غير عامل بالشورى » .

الدولة والمجتمع

يمكن تحديد الدولة بأنها سلطة عليا تحكم وتنفذ ، وتتمثل في فرد أو مجموعة أفراد . ومن واجباتها الأساسية العمل على أن يسود الأمن والعدل والنظام في الداخل . وأن تحمي الأرض والأرواح والأموال من العدوان الخارجي .

وإذا لم نجد نصاً صريحاً على شكل الدولة فإن فيه نصوصاً واضحة على وجوب إيجادها وما يجب عليها من أعمال ، من ذلك قول الإمام أمير المؤمنين (ع) في الخطبة ٤٠ من نهج البلاغة :

« لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوى حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر » .

هذا هو منطق الفطرة والبديهة ما دام الوازع الداخلي

وحده لا يضبط سلوك الفرد نحو الجماعة . وبتعبيرنا نحن الفقهاء : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وإلى هذا تومىء الآية ٢٥١ من البقرة :

«وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ» .

وأيضاً دعا القرآن الكريم الى التعاون والتعارف ، وأشار الى العلاقات الدولية ، وأنها يجب أن تقوم على أساس السلم والعدل ، ومن ذلك قوله تعالى : «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لها — ٦١ الأنفال .. وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا — ١٣ الحجرات .. لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِليهم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ — ٨ الممتحنة » .

ومرة ثانية نشير إلى أنه يجب التمييز وعدم الخلط بين النص على مفهوم الدولة وعناصرها والنص على واجباتها والهدف من وجودها .

المعصوم والسلطة الروحية والزمنية

يعتقد الشيعة الإمامية أن السلطة الروحية والزمنية حق إلهي للمعصوم السماوي مباشرة أو بالواسطة ، أما الفقيه العادل فله ولاية الإفتاء والقضاء، وأيضاً له الولاية على الأوقاف العامة مع عدم الولي المنصوص على تعيينه في عقد الوقف وسنده ، وعلى أموال الغائب إن تعذر الاتصال به وبوكيله ، وعلى أموال ناقص الأهليه مع عدم الأب والجد له ، أما أمور الحسبة ، وهي المطلوب وجودها عل أساس المصلحة من أي شخص كان كتجهيز الميت الذي لا ولي له وأمثال ذلك – فالولاية تثبت للمؤمنين الثقات مطلقاً حتى مع وجود الفقيه وإمكان الوصول اليه – كما نرى – خلافاً للمشهور والمعروف بين الفقهاء ، لأن اذن الفقيه وسيلة لا غايه .

الفقيه والسلطة الزمنية

لا سلطة زمنية للفقيه على الناس حتى ولو كان وحيد عصره علماً وتقى ، وعلى هذا جماعة من أقطاب الفقه والشريعة ، منهم الشيخ الأنصاري في كتاب المكاسب والنائيني في منية الطالب .

وقال من قال : إن هناك نصوصاً على أن للفقهاء من السلطة والسلطان ما للملوك والأمراء السياسيين ، منها : **العلماء ورثة الأنبياء ، وأمناء الرسل ، وكأنبياء بني اسرائيل ،** ومجاري الأمور بيد العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه ، وغير ذلك من الروايات . ونحن مع الأنصاري حيث قال : « الانصاف بعد ملاحظة سياق هذه الروايات وصدرها وذيلها يقتضي الجزم بأنها في بيان وظيفة الفقهاء من حيث الأحكام الشرعية لا كونهم كالنبي ﷺ والأئمة المعصومين (ع) فاقامة الدليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام دونه خرط القتاد » .

ونعطف على قول الأنصاري : لو كان كل فقيه أميرا

أو سلطاناً على الناس لتكاثرت الأمراء والسلاطين في البلد الواحـــد بعد الفقهاء ، وسادت الفوضى ، وخرج الناس من دين الله أفواجاً .

وقال **النائيني** : « أما حديث « **العلماء ورثة الأنبياء** » ونحو ذلك من الأخبار الواردة في شأن العلماء ، فمن المحتمل قريباً كون المراد بالعلماء هم الأئمة المعصومين عليهم السلام » .

وإذا انتقلنا من النصوص إلى الواقـــع المحسوس رأينا العجب من بعض أصحاب اللحى والعمائم والقلانس . فلقد قرأنا من جملة مـا قرأنا مـا جاء في مجلة الكاتب المصري تاريخ آب أغسطس سنة ١٩٦٦ ص ١٠٢ وما بعدها — أن ناصحاً للمستعمرين قال :

إن اعتماد الإستعمار على أشخاص دينيين في العـالم الثالث ، ليس أكثر من فكرة هزيلة .. والأولى أن يتسلل بين صفوف الحركة الوطنية جواسيس يعلنون شعارات تقدميـــة رنانـة ، ويعملون في الخفاء على التفريق والتخريب ..

وفي المجلة نفسها تاريخ آذار مارس سنة ١٩٦٦ مقال مطول بعنوان الحلف الإسلامي أثبت فيه الكاتب بالأرقام أن الحلف الإسلامي يعمل لصالح الإستعمار ضد الإسلام والمسلمين .

رئيس الدولة

ليس من شك أن هو أصلح وأقوى في أية مهمة ووظيفة يقدم في ولايتها على من هو دونه كفاءة ومعرفة ، فقيادة الجيش ـ مثلاً ـ للأشجع والأعلم بفنون الحرب ، والقضاء للأقضى والأتقى .. وعلى هذا المبدأ الألهي الفطري تنحصر الولاية والسلطة ديناً ودنيا بالمعصوم عن الخطأ والخطيئة . وهذي هي بالذات فلسفة حديث الثقلين ، وحديث مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح . وحديث أهل بيتي أمان لأمتي ..

إلى غير ذلك مما جاء في هذا الباب . ولا بد من الإشارة إلى أن كلمة المعصوم عن الخطأ والخطيئة تعني بطبعها ووضعها من جملة ما تعني التقدم في طريق الحياة الفضلى والابتعاد عن « الرجعية » المرادفة للركود والضلالة والجهالة .

فإن تعذر الوصول إلى المعصوم ، كما هو الشأن الآن ، فالحكم والسلطان لمن يحقق السعادة والرفاهية للجميع ، فيقيم العدل

ويحرص على الأمن ، ويؤثر المصلحة العامة على هوى نفسه ، يقرب الأخيار ويبعد الأشرار . وبكلمة يحقق مقاصد الدين القويم وأهداف سيد المرسلين وشريعته التي تقدس الإنسان من حيث هو إنسان بلا امتياز ومحاباة في أي شيء على الإطلاق إلا بما يقدمه الإنسان لخدمة أخيه الإنسان .

وهذا الذي عرضناه واثقين به ومؤمنين هو من الأحكام التقريرية ، لا الإنشائية ، ومن باب التعبير والحكاية عما هو كائن بالفعل ، لا عما ينبغي أن يكون .. إن الناس ، كل الناس ، ينظرون بفطرتهم إلى الفعل ، لا إلى الفاعل ، وإذا قدروا واحترموا بطلاً فإنما يكبرون فيه الخيرات والأعمال الصالحات .. إنهم يعظمون الإسلام في شخص محمد ﷺ ، واللمبة الكهربائية في أديسون ، والمذياع في ماركوني الخ .. أبداً لا أديان وقيم روحية ولا علوم ونظريات فلسفية بلا عمل حميد ومفيد .. لا أشخاص يثرثرون ويشمخون ويقتنون .. وهل تجلت عظمة الله وجلاله إلا في صنع الكون وجماله ؟

وإن أبيت إلا النقل والنص فاقرأ معي ما جاء في الخطبة ٧٢ من خطب النهج :

« والله لأسلمن ما سلمت أمور

المسلمين ، ولم يكن فيها جور
إلا عليّ خاصة » .

وعسى أن يتعظ بهذه الحكمة من يتغافــل عن المظالم والمجازر ولا يرى إلا نفسه وهمومه ومشكلاته .. ومن حكم الإمام (ع) :

انظر إلى القول لا إلى القائل .

وفي الحديث :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهــل النفاق » .

وفي الخطبة ٣ من خطب النهج :

« لولا ما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربهــا » ، لأن الخلافة والسلطة وسيلة لا غاية ، والحكم تكليف لا تشريف.

والمقارة : الموافقة ، والكظة : التخمة ، والسغب : شدة الجوع ، ومجمل المعنى أن الإمــام لولا الحرص على حقوق المستضعفين لترك الخلافة إلى كل مريد .

وكفى بالقرآن الكريم شاهــداً ودليلا : « ولِكُلٍ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلوُا وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عمَّا يعمَلوُنَ ــ ١٣٢ الانعام » .

أضواء على الفقه الجعفري والحنفي

القضاء بشهادة الزور

في الجزء الثاني من كتاب فتح القدير وشرحه ص ٣٨٩ ، وهو على المذهب الحنفي ، وكتاب المنخول من تعليقات الأصول لأبي حامد الغزالي ص ٥٠٣ .

أن القضاء بشهادة الزور ينفذ عند أبي حنيفة ظاهراً وواقعاً.. فإذا شهد الشهود كذبا وزوراً على أن هذة المرأة المتزوجة من زيد — مثلاً — هي زوجة بكر ، وحكم القاضي بشهادتهم مخطئاً ، حلت المرأة المذكورة لبكر حتى مع علمه وعلمها بأنها زوجة زيد واقعاً ، وساغ لها أن تدع بكراً يجامعها . وحرمت على زيد زوجها الأول الأصيل .

ويستند هـذا القول إلى المبـدأ الباطل المعروف باسم التصويب ، ومعناه أن الله سبحانه ليس له حكم معين في المسائل الإجتهادية ، بل يدور حكمه فيها مـدار ظن المجتهد وجوداً وعدما ! .

ويدل على فساد هذا التصويب وبطلانه **أولاً** : قوله تعالى : « إنِ الحُكم الا ّ لله ـ ٥٧ الأنعـام » وقول الرسول الأعظم ﷺ .

« إذا اجتهد الحـاكم وأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فاخطأ فله أجر .. إنمـا أنا بشر ، وانكم لتختصمون الي ّ، وعسى أن يكون بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فانما أقطـع له قطعة من نار فليأخذهـا أو يتركها » .

ثانياً : لو صح التصويب لتعددت أحكام الله وتضاربت في الحادثة الواحد بعدد الآراء والاجتهادات ، ولكان كل الفقهاء بمنزلة واحدة في العلم وإصابة الحق ! وإذن فعلام النقاش والجدال ؟

وبعد ، فان عقول الفقهاء وأفهامهم مجرد صورة وحكاية عن دين الحق ، وما هي دين الله بالذات وإلا لوجب أن يكون الفقيه ، كل فقيه ، معصوما عن الخطأ في رأيه وفهمه وحجة في الدين تماماً كالقرآن الكريم ، ولا حجة عليه من آية محكمة أو سنة ثابتة [1] .

(1) في المجلد الاول من كتاب أخبار القضاة لوكيع : ان محمد بن عبيد بن ميمون قال : المدينة المنورة لا يدخلها الدجال والطاعون ولا رأي أبي حنيفة .

وصي بلا وصية

في كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى ص ٩٠ طبعة سنة ١٣٥٨ هـ : أن أبا حنيفة قال :

« لو أن رجلاً أوصى إلى رجل فمات الموصى إليه ، فأوصى الرجل إلى آخر بدلاً عن الميت ، يصبح هذا الآخر البديل وصياً عن الرجل والميت جميعاً » .

أي عن الرجل الذي أوصاه وعن الميت المبدل منه مع العلم بأن هذا لم يوص إلى الآخر الذي حل محله !

قرأت هذه الفتوى وما عثرت لها على مدرك ، وحاولت جهدي أن أبررها بوجه أو بآخر فلم أهتدِ إلى شيء حيث لا وصي بلا وصية ولا قضية بلا موضوع .. وإذن فمن نافلة القول أن ننفي هذه الفتوى عن المذهب الجعفري ، بل وكل مذهب بقاعدة الإعتبار والإقتضاء .

الميراث بين جد وأخ

وفي المصدر السابق ص ٨٣ :
أن أبا حنيفة قال :
إذا مات الرجل وترك جداً لأب ، وأخاً لأب وأم ، فالمال كله للجد ولا شيء للأخ .

وفي المذهب الجعفري يقتسم الجد والأخ المال بالسوية لأن كلاً منهما ينتمي إلى المورث بواسطة واحدة ، وهي هنا والد الميت الذي مات في حياة ولده كما هو الفرض ، ومعنى هذا أن الأخ والجد متساويان في المرتبة وأصل الميراث تماماً كاجتماع الآباء والأبناء حيث ينتمون إلى المورث مباشرة وبلا واسطة ، وعليه فتوريث الجد دون الأخ ظلم واحجاف .

دعوى الإكراه

وأيضاً في المصدر السابق ص٤٥:
أن أبا حنيفة قال :
إذا وهبت المرأة لزوجها هبة أو تركت له شيئاً من مهرها ، ثم قالت : أكرهني على ذلك — فعلى القاضي أن يرد دعواها ولا يستمع لبينتها .

وفقهاء المذهب الجعفري يقبلون دعوى الإكراه من الزوجة على زوجها ، ويستمعون لبينتها ولا يفرقون في ذلك بينها وبين غيرها ما دامت شروط الدعوى متوافرة بالكامل حيث لا سبب موجب للفرق والرد إطلاقاً .

ميراث الخنثى

وفي كتاب فتح القدير وشرحه
— على المذهب الحنفي — ج ٨
ص ٥٠٩ : قال أبو حنيفة :
ترث الخنثى المشكل سهم الأنثى .
ومعنى المشكل هنا عدم الدليل
عل أن أحد العضوين التناسليين
هو الأصل في الجسم ، والثاني
عضو زائد عن الطبيعة .

وذهب أكثر فقهاء المذهب الجعفري على أن للخنثى المشكل نصف ميراث الذكر ونصف ميراث الأنثى ، فإذا ترك الميت ابناً وخنثى — مثلاً — يفرض مرة ذكرا ، فيكون له ١٢ من ٢٤ ومرة أنثى فيكون له ٨ من ٢٤ فنجمع ٨ مع ١٢ فيكون المجموع ٢٠ ، ونصفها ١٠ نعطيها للخنثى ، ولو أعطيناه سهم الأنثى لبقي احتمال أنه ذكر قائماً ، وأيضاً لو أعطيناه سهم الذكر لبقي احتمال أنه أنثى قائماً ، وأقرب السبل الممكنة والمعقولة أن نعطيه

نصف السهمين .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، وهو أن الخنثى له ما للرجال وللنساء ، فلو وُلد مولود له مخرج للبول لا يشبه عضو الرجل التناسلي ولا عضو المرأة ، فكيف نورثه ؟

الجواب :

قال صاحب مفتاح الكرامة : « ذهب أكثر العلماء في هذا بخصوصه دون الخنثى إلى القرعة ، ونقل بعضهم الإجماع على ذلك » . ويلاحظ بأن القرعة هنا تتم وتصلح على فرض أن للإنسان فردين : ذكراً وأنثى فقط ، ولا دليل على هذا الحصر لا من العقل ولا من النقل . وإذن فمن الجائز أن يكون للإنسان فرد ثالث شاذ ونادر ما هو بالذكر ولا بالأنثى . ولا يبعد أن يُلحق بالخنثى في الميراث .

المغصوب المتغير

وأيضاً في فتح القدير ج ٧ ص ٣٧٥ : « إذا تغيرت العين المغصوبة بفعل الغاصب حتى زال الاسم كالحنطة يطحنها – زال ملك المالك وصارت ملك الغاصب وضمنها » أي يتعلق ثمنها بذمة الغاصب .

وعند فقهاء المذهب الجعفري تبقى العين المغصوبة على ملك صاحبها ، وعلى الغاصب ردها مع الأرش إن نقصت قيمتها بالتغيير ، وإن زادت فلا شيء للغاصب إذ لا حرمة لعمله ، وإذا غصب بيضة فصارت فرخاً فالفرخ لصاحب البيضة لا للغاصب ، لأن الملكية متعلقة بالعين من حيث هي بغض النظر عن الصورة . أجل إذا غصب فحلاً وانزاه على أنثى فالولد لصاحب الأنثى ، وعلى الغاصب أجرة الفحل ، لأن ولد الحيوان يتبع الأنثى في كل عرف .

الحد في وطء الشبهة

المراد بالشبه هنا — على وجه الإجمال — أن يطأ الرجل امرأة محرمة عليه مع الجهل بالتحريم ، وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ٦ من فقه الإمام الصادق ص ٣٠٣ وما بعدها .

وجاء في كتاب المنخول من تعليقات الأصول للغزالي ص ٥٠٢ : « أوجب أبو حنيفة الحد بالشبهة إذا صادف أجنبية على فراشه ظنها حليلته » . ومثله في ج ٤ من فتح القدير ص ١٤٧ .

وقال فقهاء المذهب الجعفري وغيرهم : لا حد هنا لقول الرسول الكريم : « ادرأوا الحدود بالشبهات » . وعلق الغزالي على فتوى أبي حنيفة هذه بأن الذاهل لا يوصف فعله بالتحريم ، والعقوبات لا تسوغ بحال إلا على فعل الحرام المحض (أي الخالص من شبهه الحل) .

قطع يد السارق

في كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى ص ١٥٢ قال أبو حنيفة : إذا أقر الرجل بالسرقة مرة واحدة قطعت يده .

وفي الفقه الجعفري : إذا أقر السارق بالسرقة مرة واحدة ثبت عليه الغرم دون قطع اليد ، وإذا أقر مرتين ثبت الغرم والقطع ، وأيضاً إذا رجع بعد الإقرار مرتين وأكذب نفسه فعليه الغرم دون الحد .

وسئل الإمام الصادق (ع) : من أين تُقطع يد السارق؟ فقال ، تقطع الاربع اصابع فقط ، وتترك الراحة والابهام يعتمد عليهما في الصلاة ، ويغسل وجهه بهما في الوضوء .

وقال ابو حنفية : « تقطع يمين السارق من الزند ويحسم ».(انظر الجزء الرابع من فتح القدير ص ٢٤٧).

في عتق العبيد

قال سبحانه في تحـديد الذين يستحقون الزكاة : « إنمَّا الصَدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيهَا وَالمؤلفَةُ قُلُوبهم وَفي الرِقَّابِ والغَارِمينَ وفي سَبِيلِ الله وأبنِ السَبيلِ فَريضَةً من الله والله عَليمٌ حَكيمٌ – ٦٠ التوبة» والمراد بالصدقات هنا الزكاة الواجبة بدلالة قوله : « فريضة » وهي أشبه ما تكون بالضريبة يدفعهـا مالك النصاب إلى الأصناف المذكورين في الآية الـكريمة ، ومنهم العبيد المشار اليهم بكلمة الرقاب ، ودخلت عليهم « في » للدلالة أن الزكاة لا تعطى لهم كما هو الشأن في غيرهم من المستحقين ، بل تبذل في سبيل تحريرهم من الرق .

ولكن أبا حنيفة أعرض عن صريح الآية ، وقال : لا يُشترى بأموال الزكاة رقبـة لعتقها ، وعلل ذلك بأن الزكاة يملكها المحتاج والعبد لا يملك ، وانما يُعتق، والعتق

إسقـــاط للملك وليس بملك (انظر فتح القـــدير ج ٢ ص ٢١) .

وهذا تعليل لحكم الوحي المعصوم عن الخطـــأ بتصور العقل الذي يخطيء ويصيب ! . ولكن الأحناف يتخذون من عقولهم حاكما على نصوص الـــكتاب والسنة . قال صاحب المنـــار وهو يفسر الآية ١٦٧ من البقرة : إن الكرخي ؛ وهو أحد أئمة الاحناف قال :

« الأصل عندنا هو العمل بقول الحنفية ، فان وافقته نصوص الكتاب والسنة فذاك وإلا وجب تأويل نصوص القرآن والسنة النبوية على وفق قول الحنفية » .

ومعنى هذا أن قول الحنفية حاكم على كتاب الله وسنة نبيه ، وهما محكومان بقول الحنفية ! . ولا كلام بعـــد هـــذا الكلام .

لا تسقط الزكاة بالموت

نقل الغزالي في كتاب المنخول ص ٥٠١ عن أبي حنيفة أنه قال: « لو مات من عليه الزكاة قبل أدائها تسقط بموته » . وعلق أبو حامد الغزالي على ذلك بقوله : « وهل هذا إلا إبطال غرض الشارع من مراعاة غرض المساكين ؟ » .

وليس من شك أن الزكاة دين في الذمة بعد تلف العين، والدين لا يسقط بالموت باجماع المذاهب ، ومنها المذهب الجعفري لقوله تعالى : « مِن بَعد وَصيةٍ تُوصونَ بها أو دينٍ — ١٢ النساء » .

اختلاط الحرام بالحلال

في الجزء الثاني من حاشية ابن عابدين — على المذهب الحنفي — طبعة ١٣٢٣ هـ ص ٢٦ : لو خلط الانسان المال المغصوب بماله صار المجموع ملكا له ، وعليه زكاته ، ويُورث عنه لأن الخلط استهلاك ، وهو من أسباب الملك (أي عندالحنفية) فتنتقل العين المغصوبة للغاصب ، ويتعلق بدلها في ذمته .

وقال فقهاء المذهب الجعفري : ليس الإستهلاك من اسباب الملك ، وإذا اختلط مال زيد بمال بكر بأي سبب من الأسباب وامتزجا مزجا تاماً كالخل بالخل . أو الخل بالعسل ، تحققت الشركة الواقعية القهرية بين المالكين لكل على قدر ماله ، وإذا لم يحدث المزج التام كاختلاط الحنطة بالحنطة وتعذر التمييز كانت الشركة حكمية أي تجري عليها احكام الشركة حتى ولو لم تحقق الشركة الشائعة في الواقع .

ابو حنيفة و احاديث الرسول

ونكتفي بهذه المجموعة من الفقه الحنفي والمقارنة بينه وبين الفقه الجعفري ، ونترك الحكم لعقل القارىء ووجدانه ، ولا نقطع عليه الطريق بمدح أو بقدح .

وبهذه المناسبة نشير أن المعروف لدى كثير من العلماء أن أبا حنيفة لم يثبت عنده إلا ١٧ حديثاً من أحاديث الرسول الكريم ﷺ وصدقنا ذلك في البداية . وبعد أن تتبعنا آراء أبي حنيفة في الفقه ترجح لدينا أن الثابت عنده من أحاديث النبي ﷺ أكثر من ذلك بكثير ، ولكنه عمل بـ ١٧ حديثاً فقط أو أقر بهذا العدد لأن ١٧ تتفق بظاهرها مع رأيه واجتهاده ، وترك ما عداها مع علمه بصحته لأنه على خلاف اجتهاده تماماً كما فعل بآية « مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بها أوْ دَيْنٍ » وآية « في الرقاب »

اللتين سبقت الإشارة إليهما في هذا الفصل وغيرهما من الآيات .

ومن كل ما تقدم يتضح لنا السر في حديث الرسول الأعظم ﷺ وقوله : « خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. أهل بيتي أمان لأمتي » .

وقول الإمام الصادق (ع) وأبي الصادق : نحن خزّان علم الله وتراجمة وحيه . نقول هذا ، ونحن نؤمن بأن جميع المذاهب الإسلامية بما فيها المذهب الجعفري والحنفي تعتبر أهل القبلة كافة أخواناً في الدين وأعواناً للإسلام والمسلمين إلا أن يكون هناك كفر صريح كمن يتعمد .

بين الدين والشخصية والوعي

الشخصية

تكلم علماء النفس حول شخصية الإنسان الفرد ، وذكروا العديد من المعاني والأقسام وأطالوا الكلام ..

وهي – كما نفهمها – نوع من تأكيد الذات والوجود بلا جهل وغرور ، وتتضح سمات الشخصية أو تأكيد الذات في سيرة صاحبها وتصرفاته ، وبخاصة حين تنزل به نازلة وتعرض له مشكلة ، وفي موقفه من المغريات وتحكمه في عواطفه ورفضه ما لا يركن إليه ويطمئن به ، أما الإمعة الذي يسلس زمامه لكل قائد ، وتتقلب ذاته تبعاً للظرف فلا شخصية له ولا كيان حتى ولو تبوأ أعلى المناصب .

ومن آثار الشخصية وقوتها أن أية حجة يُدلي بها صاحب الشخصية القوية يرتضيها منه أكثر الناس أو الكثير منهم مع العلم بأن السخيف الضعيف لو استدل بهذه الحجة نفسها لكان أضحوكة لكل ساخر وعابث ! وان دل هذا فإنه يدل على أن الكلمة تتعدى دلالتها اللغوية إلى الصفات

الخاصة التي تميزت بها شخصية المتكلم ، وإلى هــذا يشير الكاتب الفرنسي بافون بقوله : « إن أسلوب الإنسان هو نفس الإنسان » أي أن الأسلوب مزيـج من اللغة والفكر والشخصية .



الشخصية والايمان

والشخصية بالمعنى الذي ذكرنا هي الأصل والنواة الرئيسية للإيمان الكامل لأن الفضيلة لا تنبت في تربة تذروها الرياح ، ولا في ذات تتجدد في كل لحظة تبعاً لما يمر بها من أحداث وتيارات .. فقد شاهدنا رجالاً اشتهروا في ماضيهم بالورع والتقوى والوداعة والدماثة حتى إذا سنحت لهم الفرص تحرروا من كل قيد ، وتنكروا لكل خير .

قال الإمام الصادق (ع) :

« ما أثنى الله على عبد إلا بعد أن يبتليه ويفي له بعد الابتلاء بحق العبودية » ..

ان مباشرة البلاء والصبر عليه تصحيح لنسبة الإيمان ، أي لا يُنسب أحد إلى الإيمان حتى يمر بالعديد من التجارب ، ويثبت على إيمانه في السراء والضراء . إن الله

سبحانه يعلم عن عباده ما سيفعلون من خير أو شر قبل أن يبتليهم بشيء من الخوف ونقص من الأموال كما في الآية ١٥٥ من البقرة ، ولكن سبق في عدله وحكمته أن لا يحاسب أحداً على أحد على ما يعلم منه وما ينطوي عليه ، بل يحاسبه ويجازيه على ما يظهر منه بالفعل بعد أن وهبه العقل والقدرة والإرادة تماماً كأستاذ المدرسة — الكاف هنا للتقريب لا للتشبيه — لا يضع للتلميذ أرقام الرسوب أو النجاح إلا بعد الفحص والامتحان . وجاء في كتاب المذاهب الكبرى في التاريخ : « إن الله سبحانه يبتلي عباده » ، وفي هذا يقول القرآن : « ولنبلونكم بالشر والخير فتنة » وذلك أنه لا يمكن أن يوجد تحقيق أخلاقي مستقل دون هذه الفتنة » .

الوعي في الايمان

والمراد بالوعي هنا الفطنة ونفاذ البصيرة . وليس من الضروري أن يكون الواعي على مستوى العباقرة ، بل يكفي أن يدرك ما يحيط به ولا غنى له عنه إدراكا علميا ، وأن يتحفظ من الدعاة ، ولا ينخدع بالمظاهر . وفي الحديث الشريف :

« **المؤمن كيّس فطن حذر .. المؤمن ينظر بنور الله** » .

كما في سفينة البحار . ومعنى هذا أنه لا وزن لإيمان من يحب الخير ولا يعرف له معنى ولا يميز بين الأخيار والأشرار ؛ قال الإمام أمير المؤمنين (ع) :

« اشهدوا من ترضون دينه وأمانته وخلقه وصلاحه وعفته وتيقظه فيما يشهد به وتحصيله وتمييزه ، فما كل صالح مميز ؛ وما كل مميز صالح » .

وقال بعض العلماء :

« نرد شهادة شفاعة أقوام نرجوا شفاعتهم يوم القيامة » .

وفي الجزء الأول من اصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) العديد من الروايات التي تربط الإيمان بالعقل منها :

« العقل دليل المؤمن .. العقل حجة بين الله وعبـــاده .. من كان عاقلاً كان له دين .. ان الثواب على قدر العقل » .

وكل هذه الأقوال وغيرها يجمعها قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : **« أصل ديني العقل »** .

الأقوم والأسلم

ولا يريد النبي والآل الأطهار صلى الله عليه وآله وسلم من العقل هنــا المكتشف لأسرار الطبيعة كعقل ريستاركوس وليسيبوس ـ مثلاً ـ [1] ولا العقــل المخترع لأسلحة الخراب والدمار لأنها رجس من عمل الشيطان وقوة للفجار والأشرار وأمضى سلاح ضد العدل والحرية ، وإنما أرادوا العقل الذي أشرنا اليه في فقرة الوعي والايمان . ومن صفاته كما في روايات أهل البيت (ع) ما يلي :

الأقوم والأسلم :

١ ـ أن يميز بين المجرمين والمتقين ، بين أهل الجحيم

---

(١) ريستاركوس هو الــذي اعلن دوران الارض حــول الشمس عام ٢٨٠ قبل الميــلاد . وليسبيوس اكتشف قبل علماء العصر بعشرات المئات من السنين : ان المادة ذرات متناهية في الصغر وهــي فــي حركة دائبة . اكتشفا ذلك بمخيلة عقليــة ونظريــات افتراضية لا بالتجربة والمختبر وادواته الفنية .

وأهل النعيم ، ثم يختار صاحب هذا العقل الأقوم والأسلم لدينه ودنياه . قال الإمام الصادق (ع : « العقل ما عُبد به الرحمن ، واكتُسب به الجنان . فقيل له : والذي كان في معاوية ؟ فقال : تلك الشيطنة » .

إن وظيفة العقل التعقل وإدراك الأمور وتدبيرها بوجه محكم ، خيراً كانت أم شراً ، أجل إن العقل يدرك الخير أيضاً ويأمر به ، ويعرف الشر وينهى عنه ، ما في ذلك ريب ، ولكن لا حول له ولا قوة ما دامت ارادة الفعل والترك بيد الانسان وحده لا بيد العقل ، وعليه فإن فعل الخير فقد استعمل عقله فيما خلق له ، واتخذ منه وسيلة لمرضاة الله والحق ، ويكون العقل عندئذ إلهياً لا شيطانياً ، وإن اختار الشر فقد استعمله في غير ما وضع له ، واتخذ منه أداة للإجرام واللصوصية ، ويكون عقله ، وهذي هي الحال – شيطانياً لا إلهياً .

وبكلمة أن العقل على رغم نوره وهدايته فإنه في نفس الوقت خادم مطيع ، اما للباطل والرذيلة ، واما للحق والفضيلة ، والخيار لصاحبه ، وقد اختار معاوية أن يكون عقله خادماً للشيطان لا للرحمن . وقال حكيم قديم :

« العقل متوجه أينما وجهته ..
فإذا صُرف الى الدين أحكمه
وتفقه فيه ، وإذا صُرف إلى
الدنيا أغنى بها واحتال فيها » .

أفضل الجهاد :

٢ ـ قال الإمام الصادق (ع) : « أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد .. أعبد الناس من اجتنب محارم الله ـ وأهمها أذى الناس ـ .. أفضل العبادة العفاف .. من كف أذاه كان في الجنة ملكاً محبوراً » الى غير ذلك من روايات هذا الباب ، ومن تتبعها بالكامل يظن أن أهل البيت (ع) يعتبرون كف الأذى عن الناس أصلاً من أصول الإيمان ودعامة من دعائمه ، ولا غرابة فإنه السبيل الوحيد للأمن والاستقرار والحرية والعدالة ، فما من حرب وشقاء وفتنة وبلاء إلا ويرد إلى ظلم الانسان لأخيه الانسان، ويعكس عدوان الأقوياء على الضعفاء .

للعقل حدود :

٣ ـ قال الإمام الصادق (ع) : « العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه . ولا يعد ما لا يقدر عليه ، ولا يقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه » . العاقل يضع الأشياء في مواضعها ، ويبتعد عن موارد التهم ، ويدع ما يعجز عنه الى ما يقدر عليه ، ومن أقدم وخالف شيئاً من ذلك فقد أقام الحجة على نفسه لغيره !. وهذا هو الأحمق بعينه .

ومن كل ما عرضناه من النصوص يتبين معنا أن للإيمان الحق عنصرين أساسيين : الأخلاق الكريمة ، والصمود على الحق ، وبدون هذين العنصرين لا إيمان ، بل ولا إنسانية.

بين الحق والاخلاق

معنى الحق

للحق معانٍ شتّى ، والمراد به هنا الثبوت والوجوب ، يقال : حقّ الأمر أي ثبت ووجب ، والفرق بين الحق والحقيقة أن الحقيقة بنت البرهان على أن هذه الفكرة من صلب الواقع ، أما الحق فهو وليد الحياة الإجتماعية وعلائق الناس وتلاقي بعضهم مع بعض ، ولولا ذلك لم يكـــن للحق العرفي عين أو أثر ، وهو ضرورة حياتية وحتمية تماماً كالخبز والماء لكل اجتماع وترابط بين فردين أو لجماعتين أو فرد وجماعة .

اقسام الحق

يصعب تحديد الحق بمفهومه العام ، لأنه يشمل أنواعاً متعددة من الحقوق ، فهو ينقسم إلى أقسام باعتبارات شتى ، منها انقسامه إلى حق مالي كملكية الأعيان والتصرف فيها ، وحق أدبي كحق الانتخاب وحق الحضانة ، ثم أن الحق المالي ينقسم إلى شخصي وعيني ، والحق الشخصي يسوّغ لأحد الغريمين أن يطالب صاحبه بإداء ما عليه من مال أو القيام بعمل كالمودع يرغب إلى الوديع أن يرد إليه الوديعة ، أو يمتنع عن استعمالها والتصرف فيها ، أما الحق العيني فيتعلق بالعين كملك رقبتها أو منفعتها أو هما معاً .

وأيضاً ينقسم الحق إلى خاص كحق المجني عليه في أن يقتص هو أو وليه من الجاني ، ويسمى هذا حق الناس أيضاً ، ويجوز إسقاطه والعفو عنه . والقسم الثاني عام كحق الشرع في عقاب الجاني زجراً للأنام عن العدوان ، ولا عفو هنا ، وأيضاً يسمى هذا بحق الله .. إلى غير ذلك من الحقوق .

لا أخلاق بلا حق

يضبط علم الأخلاق السلوك ، ويوجهه إلى ما ينبغي فعله أو تركه ، ومـــا من شك أن الحق أحق أن يُتبع ، وأن الباطل يجب أن يدحض ، ومعنى هذا أن بين الحق والأخلاق علاقة حتميـة ، وعلى أساسها صيغت قواعد الأخلاق في نطاق الحق لكي تحميه من العدوان ، كما أوجبت على صاحب الحق أن لا يخرج به عما وُضع له ، ويسيء في استعماله إلى الآخرين متمسكاً بأهدابه .

وتهتم الأخلاق اهتماماً بالغاً بالحقوق الناشئة عن التعاقد والإلتزام برضا المتعاقدين كالوفاء بمـــا ألزم الإنسان بـــه نفسه ، ولكن في نطاق الحدود التالية :

الوفاء بشروطه وحدوده :

ونتساءل : إذا تضرر أحد المتعاقدين من الوفـاء بعقد أو عهد أو نذر أو يمين فهل يجب عليـه تنفيذه على كل حال ومهما تكن النتائج ؟

الجواب :

أبداً لا يجب الوفاء بشيء من العقود والموجبات ، ولا يسوغ لأحد أن يفرض على المتعاقد أو الموجب التنفيذ إلا على أساس أخلاقي ، فأي عقد يصطدم ويتنافى مع قيمة أخلاقية كالإكراه أو الغش والتدليس أو العيب والضرر أو الغبن والإجحاف أو الغلط وما اليه ـ فلا يمضي على المتعاقد ولا يُلزم بأي أثر من آثاره ، ومعنى هذا أن مجرد النطق بالعقد من حيث هو أو مع القصد والرضا ، لا يجعل العقد تابعاً للقصد وحده ، ولا هو شريعة المتعاقدين لا يجوز نقضه ولا تبديله إلا برضا الطرفين كما يدور على الألسن . كلا ، فان المبدأ الخلقي هو الأساس والسبب الموجب لنقض العقد أو إبرامه .

وهكذا تعم قاعدة نفي الإصر والعسر وتشمل كل مشقة حتى ولو تحملها الانسان بارادته وأختياره .

الجار وصاحب الحق

أوضح مثال يكشف عن الصلة الوثيقة بين الحق والأخلاق ـ أن الاسلام قد أوجب على صاحب الحق أن لا يضار الجار في شيء بخاصة إذا تجاوز الحد المألوف عرفا ، ومن ذلك أن يرفع حائطاً شاهقا في أرضه لا بقصد أن ينتفع به أو يتقي من مضرة ، بل كيداً بجاره ليمنع عنه الضياء والهواء ، إذا كان ذلك تنتفي سلطة المالك على ملكه في هذا النطاق لأن السلطةعلى الملك تماماً كالحرية ، يحدهــا عدم التعــدي على حرية الأخرين .

وبعد ، فان الانسان هو القيمة العظمى في دين الإسلام والمحور الذي تدوز على مصلحته الشريعة الإسلامية وجوداً وعدما ، فعلينا ، وهذا هو الواقع ، أن نفسر كل نص من نصوصها على هذا الأساس ، وننفي كل حكم مدون في كتب الفقه الإسلامي ينحرف عن هــذا الخط . قال نقيب من نقباء المحامين في كلمة مطولة افتتحت بها مجلة

المحامي البيروتية عددها الرابع من السنة السادسة عشرة :

« الشرع الإسلامي أول الشرائع المدنيـة التي دونت الأخلاق وأعطت مفاهيمها قوة القانون ، وجعلت الصدق والأمانة والوفاء والشرف والمروءة قوى موجهة للحق بحيث إذا تجرد منها انهدم ولم يعد ملزماً بشيء ... إن أفق الشريعة الإسلامية أوسع آفاق الشرائع لأنها تصدر عن العقل والأخلاق ، فكل ما يقرره العقل السليم وتسمح به الأخلاق فهو من الشرع » .

وإذا كان الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء حقاً وواقعاً، فيجب أنْ يشبع حاجات الانسان بالكامل ، ولن يكون كذلك الا أن تحرص شريعته على كل ما من شأنه أن يخدم الإنسان ويسير به الى حياة أفضل علماً كان أو فناً أو فلسفة أو أخلاقاً .

مفاهيم انسانية
في كلمات

الإمام جعفر الصادق

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وإله الطيبين .

وبعد ، فان هذا العصر عصر غربلة الافكار ، وتمييز النافع من الضار ، وبديهة أن الغربلة بمعناها الصحيح لا تتحقق إلا بعد الاحاطة بكل فكرة تتصل بالموضوع ، وبعد المقارنة بينها من جميع الجهات تكون التصفية بقبول ما يُقبل ، ورفض ما يُرفض ، تماماً كما يفعل القاضي حين يجمع بين الخصمين ، ويستمع إلى كل ، ثم يحكم بما تستدعيه الاصول .

أما من يسرع الى الحكم بأن هذه الفكرة حقيقة جديدة ، وانها من مبتكرات العصر الحديث ، أما أن يقول هذا دون تحفظ ، ودون بحث وتنقيب فقد حكم قبل أن يتثبت ، وتعدى حدود العلم والعدل .

وهذه الصفحات تهدف إلى ايجاد حافز في نفوس

ابنائنا وشبابنا ، الى الاناة والتثبت في أحـكامهم على ما يقرأون ويسمعون من أفكار يحسبونها جديدة ، لانهـا تلبي حاجة من حاجات الحياة ، حتى كأن تاريخهم وتراثهم جفاء ليس فيه شيء ينفع الناس ، وليس من شك انهم بذلك يسيئون إلى انفسهم ، ويقطعون كل وشيجـة بينهم وبين قوميتهم ، ويفقدون كل صفة تدعو الى احـترامهم والأصغاء الى أقوالهم وآرائهم .

وأقسم قسم من لا يخشى إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه أني قرأت الواناً من الكتب والأفكار قديمها وحديثهـا ، شرقيها وغربيها ، وما وجدت شيئاً ينتفـع به الناس إلا وجـدت له أساساً ومصدراً في تراثنا الأسلامي بصورة أوفى وأجدى ، بخاصة في كلام أهل البيت ، وبالاخص في كلمات الأمام علي ، وحفيده الأمـام الصادق . وسبق أن عرضت جملة من أقوال الأمـام في كتاب « علي والقرآن » ، أما هذه الصفحات فقد ذكرت فيها طرفـاً من كلمات الأمام جعفر الصادق في حقيقة الدين ، ونظرية المعرفة ، وتحديد الحق والخير والحرية والبلاغة ، وما إلى ذاك من أسس الحياة ، وقارنت بين أقواله وبين النظريات التي يقال انها حديثة ، وقدمت الأرقام والأدلة على أنه قد سبق اليها بمئات السنين .

تحدث الإمام الصادق عن مشكلات الحياة التي يحسها

كل انسان ، وذكر حلولها ببساطه بالغة يفهمها ويؤمن بها الخاص والعام ، ذلك انها حلول تعبر عن الواقع ، وإذا كان للحقيقة من ميزة فهي الوضوح والبساطة، والذي يلفت النظر أن أحاديث أهل البيت تدل بصراحة على انهم لا يتكلمون عن مشكلات الحياة بوحي من حب الخير ، والاخلاص للانسانية فحسب ، بل أن لهم مناهج علمية لمعالجة كل مشكلة ، وأستئصالها من الجذور ، كقول الإمام الصادق : « ثلاثة أشياء يحتاج اليها الناس : الأمن والعدل والخصب » وقوله : « أن يسلم الناس من ثلاثة كانت سلامة شاملة : لسان السوء ، ويد السوء ، وفعل السوء » . وغير ذلك كثير .

ولا بدع ، فان علوم أهل البيت هي علوم القرآن الذي فيه تبيان كل شيء ، وعلوم جدهم الرسول الذي لا ينطق عن الهوى ، وسيجيء يوم يتفق فيه الناس على أن كل ما قاله أهل البيت حق لا ريب فيه ، كما اتفقوا على أن شكل الأرض كروي بعد اختلاف طويل في شكلها . وإذا تكلمت في هذه الصفحات عن المفاهيم الانسانية أو الاخلاق عند الإمام الصادق ، أو عند أحد الائمة من أهل البيت فإنما اتكلم عن الأخلاق عند الرسوم الأعظم ، وكما هي في القرآن الكريم والسنة النبوية .

قال الإمام الصادق : « لا تقبلوا علينا خلاف القرآن،

فإنا أن تحدثنا حدثنا بموافقـة القرآن ، وموافقة السنة ، إنا عن الله وعن الرسول نتحدث ، ولا نقول قال فلان وفلان ، فتتناقض اقوالنـا ، ان كلام آخرنا مثل كلام أولنا ، وكلام أولنا مصداق لـكلام آخرنا ، فإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليـه ، وقولوا : أنت أعلم وما جئت به ، فإن لكلامنا حقيقة ، وعليه نوراً ، فالا حقيقة له ، ولا نور عليه فذلك قول الشيطان » .

وبالتالي ، فليست الكلمات التي أقدمها للقراء هي كل ما أطلعت عليه من أقوال الإمام الصادق في هـذا الباب، وإنما هي نقطة من بحر حكمه البالغة وتعاليمه الرشيدة ، ولكنها - على قلتها - تفي بالغـاية التي أردت ، حيث يبصر القارىء من خلالها أن الإسلام غني بمبادئه وتعاليمه عن كل جديد غربياً كان أو شرقياً ، وأنه يصدّر ولا يستورد ، ويعطى ولا يأخذ .

وأتوسل إلى الله سبحانه بالمصطفى وأهل بيته ان يسمح لي بمتابعة مثل هذه البحوث . والحمد لله أولاً وآخراً .

سبيل الامام الى الكمال

« قيل له : على ماذا بنيت امرك ؟ ...
« فقال : علمت ان عملي لا يعمله غيري »
« فاجتهدت وعلمت ان الله سبحانه مطلع »
« علي فاستحييت وعلمت ان رزقي لا يأكله »
« غيري فاطمأننت .. وعلمت ان آخر امري »
« الموت ، فاستعددت . »

يعلم السائل أن أمر الإمام ومطلبه ليس الطعام والثروة ، ولا السلطان والشهرة ، يعلم السائل أن هدف الإمـام هو الخير والكمال ، وأن سبيله إلى الكمال قانون عـام صالح للناس وللأجيال ، وأنه يعمل به ، ويطبقه على نفسه قبل أن يعلنه ، فسأل الإمام أن يرشده إلى هـذا القانون ، قانون الحق والفضيلة .

فأجابه بأنه يبني أعماله على أسس أربعة :

الأول : علمه بأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأنه لا يحصد ما يزرع سواه ، ولا يجديه شيء إذا أهمل مـا عليه من واجبات .. ان من يشعر بكرامتـه ، ويريد أن يكون شيئاً مذكوراً لا يتكل إلا على الله واجتهاده .

أجـل ، لا غنى لأي إنسان عن التعاون مهما بلغت عظمته ، ولكن التعاون شيء والاتكالية شيء آخر ، ان الاتكالي يمحي نفسه من الوجود ، أما من يتعاون مع غيره فهو كأي عضو من أعضاء الكائن الحي يستعين بقوة سائر

الأعضاء ، وفي نفس الوقت تستعين هي بقوته .

الثاني : الحياء من الله ، والحياء منه سبحانه أصل الفضائل كلها فمن خافه واستحى منه لا يداهن ولا يرائي ولا يكذب ولا يزني ولا يسرق ، ولا يصغي إلا إليه تعالى ، ومن صغى إلى الله وحده تكشفت له الحقائق ، وعمل بها بشجاعة وإيمان . ومن خاف الناس فقد تخلى عن شخصيته ، وحرم نفسه من فضيلة الشجاعة والحق والصدق ، واختار لها دنس الرياء والكذب والنفاق .

الثالث : الاطمئنان إلى أن رزقه مضمون لا ياكله غيره . وهنا يتجه هذا السؤال .

كيف لا يأكل رزق إنسان سواه مع أن الذين يعيشون على اقوات الناس ودمائهم لا يحصى عديدهم ؟ ! والإمام الصادق نفسه قال : لم يجتمع عشرون ألف درهم من حلال . وقال جده الإمام علي : « ما جاع فقير إلا بما متع به غني .. ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع » .

والجواب : أن الإمام لم يرد بقوله هذا أن باب الظلم والسلب مسدود ، وإنما أراد أن هذا التنافس على الرزق الذي يحصل – في الغالب – بين أرباب المهن كمخاصمة تاجرين أو عاملين ، وما إلى ذاك يقع في غير محله ، ولا

باعث له سوى الجهل ، ما دام كل يعمل ويسعى بالطريق المألوف . وبهذا نجد تفسير الحديث الشريف : « ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، ولو اجتمع الناس على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله عليك » .

وما دام الأمر كذلك فعلى كل إنسان أن يعتمد على نفسه بعد خالقه ، وأن يتعارف ويتعايش مع غيره بالمعروف ويترك المشاحنات والخصومات .

الرابع : الاستعداد للموت ، وليس من شك أن من استعد للموت فقد خاف العاقبة ، وتثبت قبل أن يقول ويفعل ، ويعمل لخلاص نفسه من المهلكات ، ولم يغتر بالشهوات والملذات وازداد كل يوم إحساناً وصلاحاً .

الله واحد

« قيل له: ما الدليل على ان الله واحد ؟..»
« فقال : ما بالخالق من حاجة الى اكثر .. »

وقد اعتمد علماء الكلام هذا القول ، واتخذوا منه دليلاً على نفي الشريك عن الباري عز وجل ، قالوا : إذا وجد إلهان ، فاما أن يكون كل منهما قادراً على الخلق والإبداع مستقلاً عن الثاني ، فيكون وجود أحدهما ، والحال هذه ، عبثاً لا حاجة إليه ، والإله منزه عن العبث ، وإما أن يكون عاجزاً بمفرده بحيث لا يستطيع الخلق إلا بمعونة شريكه ، ويستحيل أن يكون العاجز إلهاً ، فتعين أن الخالق واحد لا شريك له ، أو قل ان ذات الإله بنفسها تستدعي التفرد بالقوة والسلطان والايجاد ، وإلا امتنع وصفها بالألوهية .

وقال له رجل : اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع .

فقال له : اخبرني عن حرفتك .

قال : أنا رجل أتجر في البحر .

فقال له : لو ركبت البحر ، فانكسرت السفينة ،

وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة هل تجد في قلبك تضرعاً ودعاء ؟

قال : نعم .

فقال الإمام : فإلهك هو الذي تضرعت له في ذلك الوقت .

لقد كتب الفلاسفة وعلماء الكلام الصفحات في إثبات الخالق ، وفي قول الإمام هذا غناء عن كل ما ملأ الرؤوس والمجلدات من الأقيسة والمجادلات . لأن النفس منذ تكوينها مفطورة على الاعتراف بخالقها فطرة الله التي فطر الناس عليها . ومن المذاهب الفلسفية الشائعة في هذا العصر أن معرفة الله لا تعتمد على الحس ولا على الفكر ، وإنما هي وعي يقع في القلب مباشرة ، وبدون واسطة .

وقال غاندي : ان الله هو ذلك الذي يجل ، ويسمو عن التحديد ، وهو الذي لا نعرفه ، ولكن نحس ونشعر به . ان قوة غير منظورة تكمن في باطننا ، وهي أقرب إلينا من الظفر إلى لحم الأصبع ، ان الله موجود في كل واحد منا .

مبتدع ضال

« قال : من دعا الناس الى نفسه »
« وفيهم من هو اعلم منه فهو مبتدع ضال » .

إذا وجد عالمان ، وكان أحدهما أعلم من الآخر فعلى غير الأعلم أن يرشد الناس إلى من هو أعلم منه ، على شريطة أن يثق بدينه وعدالته ، أما إذا كان غير أمين فيحرم الإرشاد إليه ، والعمل بقوله ، وان بلغ من العلم ما بلغ . قال الإمام الصادق (ع) : كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً ، ان الله يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً ، ومن تعلم وعمل لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً .

الزهد

« قيل له : ما حد الزهد ؟ قال قول الله »
« سبحانه : لكيلا تاسوا على مـا فاتكم ، »
« ولا تفرحوا بما اتاكم .. »

ان العاقل لا يقول لشيء كان ليته لم يكن ، ولا لشيء م يكن ليته كان . وكان بزر جمهر لا يرى فرحـاً ولا حزينـاً فسئل عن ذلك ، فقال : ان الغائب لا يتلافى بالعبرة ، والآتي لا يستدام بالحبرة . وجاء في الحديث : « لو » فإن لو تفتح عمـل الشيطان . وقرأت فيما قرأت أن تاجراً في امريكا احترقت أمواله كلهـا ، وكانت تبلغ الملايين . فجاءه بعض معارفه يعزيه ، فوجده كعادته ، كأن لم يكن شيء ، ولما سأله عن عدم اكتراثه ومبالاته ، قال له : ان الحزن على مـا فات لا يجدي نفعاً ، وأنا أفكر بجمع الثروة من جديد ، وهذا أهم شيء لدي .

البلاغة

« قال : من عرف شيئا قل كلامه ، وانما »
« سمي البليغ بليغا ، لانــه يبلغ حاجته »
« بايجاز ... وقال : ثلاثـة فيها البلاغة »
« القرب من المعنى والبعد عن حشو الكلام، »
« والدلالة بالقليل عـلي الكثير .. ليست »
« البلالاغة بحـــدة اللسان ، ولا بكثـرة »
« الهذيان ، ولكنها اصابـــة المعنى وقصد »
« الحجة .. »

يخلط كثير من المتعلمين بين مفهومي الأدب والبلاغة . ويرونهما شيئاً واحداً . مع أن الفرق بعيد جداً بين معنى كل منهما ، فلفظة أدب مرت بادوار عديدة ، كانت في الجاهلية تدل على كمال النفس ، فالأديب من كان على خلق كريم ، ومنه الحديث الشريف « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** » ثم أستعمل لفظ الأديب في العصر الأموي في فئة المعلمين ، وقيل للمعلم « **مؤدب الصبيان** » ، ثم أطلقت في العهد العباسي على من يروي طرفاً من الشعر والمثل واللغة والنوادر .

ما اليوم فيعبر بلفظ الأديب عـــن الخطباء والكتاب

الذين يتكلمون عن الحياة العامة وأحداثها ، ويضفون عليها لوناً من خيالهم واحساسهم ، ويحكمون عليها بما يرون من خير أو شر ، ويوجهون الناس إلى ما يريدون. وقد لا يهتم الأديب بشيء من حياة الناس ، وانما همه أن يصوغ قطعة فنية شعراً أو نثراً يجد فيها السامعون المتعة واللذة .

أما لفظة البليغ فما زالت كما كانت منذ وضع علم البلاغة تدل على أن المتكلم قادر على التعبير عما يريد بلفظ عربي فصيح مع الايجاز والوضوح ، وعدم الخروج عن الموضوع ، وأوجز تحديد للبلاغة ما قاله الإمام الصادق : « الدلالة بالقليل على الكثير ، أو اصابة المعنى وقصد الحجة » . فكل من أصاب المعنى الذى يريد بيانه بإيجاز ووضوح فهو بليغ ، سواء أعاد هذا المعنى على الناس بالخير والمنفعة ، أو لم يترتب عليه أي أثر ملموس غير اللذة والمتعة .

أجل ، ان الأدب يلازم البلاغة ولا ينفك عنها بحال ، اما البلاغة فقد تنفرد عن الأدب ، إذ من الممكن أن يعبر الانسان عما يريد بإيجاز ووضوح ، ويصيب المعنى ، ومع ذلك لا تكون له معرفة الأديب وثقافته . إذن فكل بليغ ، وليس كل بليغ أديب .

الحرية والسعادة

« قال : خمس خصال مـــن لم تكـن فيه »
« واحدة منها فليس فيــــه كثير مستمع : »
« الوفـاء والتدبير ، والحيـــاء ، وحسن »
« الخلق ، والخامسة تجمع هذه الخصال »
« كلها ، وهي الحريـة ... وخمس خصال »
« من فقــد واحدة لم يـــزل ناقص العيش »
« زائل العقل مشغول القلب وهـــي صحة »
« البدن ، والامن ، والسعـــة في الــرزق »
« والانيس الموافق قيل له : ومـا الانيس »
« الموافق ؟ قال الزوجة الصالحة ، والولد »
« الصالح ، والخليط الصالــح .. وتجمع »
« هذه الخصال كلهـا الدعــة .... »

لو أن كاتباً اجتماعياً كتب مؤلفاً ضخماً في السعادة لما وجد غير هذه الأسس الأربعة ، ولانتهى إلى نفس ما انتهى اليه الإمام من التحديد والنتيجة . ان الدعة — وهي السكينة والراحة — نتيجة طبيعية لصحة البدن ، وخفض العيش والانيس الموافق ، والسلام الدائم ، فمن أجلهـــا يعمل كل انسان ، وعنها يدافع ، ومنها يتخـــذ مقياساً لتقدم الشعوب ووعيها ، وعدالة الحكام واخلاصهم ، ومهما

أختلف الناس في تفكيرهم وأديانهم وتقاليدهم فهدف الجميع واحد : الصحة . الأمن . العيش الرغيد .

وقد يقال : ان علاقة الراحة بالصحة والأمن والعيش بديهية لا تحتاج إلى شرح وتوضيح ، ولكن أية علاقة للوفاء والتدبير وحسن الخلق والحياء بالحرية ؟! وما هو الوجه لقول الإمام بانها تجمع هذه الخصال ؟!

والجواب : ان الحرية يراد منها تارة التحرر من الشهوات والاهواء ، وأخرى التحلل من التقليد والتبعية ، وثالثاً الخلاص من القوة والسيطرة المعتدية، وأي معنى أريد من هذه المعاني الثلاثة فإن الانسان يفقد شخصيته وارادته إذا فقد الحرية، لأن من تتحكم به العواطف والانفعالات ، أو يسيطر عليه الغير يستحيل عليه التدبير والوفاء ، وحسن الخلق والحياء ، يستحيل أن يملك من أمره غير الخضوع والتسليم .

ومن أجل هذا أعتبر الإمام الصادق الحرية أم الفضائل والعبودية أم الرذائل ، وأصل المشكلات الاجتماعية والشخصية .

ونستطيع القول : لو أن الشباب أطلعوا على تعاليم الصادق وتدبروها لما فكروا بالتحليل من قيود الدين ، ولتأكدوا أن الدين يتصل اتصالاً قوياً وفعالاً بواقع

الحياة ، ويستهدف خير الانسانية وسعادتها ، وأن كل ما فيه النفع والصلاح فهو مــن الدين في الصميم . ليس في الدين مادة دنيوية ، وروح أخروية ، وانما فيه خير وشر ، ونافع وضار ، وحسن وقبيح ، فكل نافع هو ديني مادياً كان أو روحياً .

وبالتالي ، نوجه إلى شبابنا هذا السؤال :

لقد قرأتم مئات الصفحات في الحرية والسعادة للغربيين وغير الغربيين فهل وجدتم خيراً من أقوال الإمام الصادق في تحديد مفهوم الحرية والسعادة ؟! هل قرأتم قولاً يعبر عن شعوركم أبلغ وأصدق تعبير كقوله هذا ؟!

لا حقيقة الا في العمل

« قيل له : ان قوما يعصون الله ويقولون: »
« نرجو مغفرة الله .. فقال : كذبوا ، ان »
« من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من »
« شيء هرب منه .. »

إذا قلت : هذا خيّر ، وهذا شرير فالمفروض أنك أعتمدت لحكمك هذا على صفة من صفات المحكوم عليه بالخير ، أو الشر ، فما هي تلك الصفة ؟ هل هي الكلام؟ أو النية ، أو العمل ؟ .

ويدلنا قول الإمام الصادق : « من رجا شيئاً طلبه » ان العمل وحده يجب أن يكون مصدر الحكم ، وكذا قول جده أمير المؤمنين : « يدعي انه يرجو الله كذب ، والعظيم .. ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله ؟! كل من رجا عرف رجاؤه في عمله »

وهذا انكار صريح لوجود أي شيء في النفس كحقيقة ثابتة إذا لم يصدر عنه أثر حسي يرى بالعين ، أو يلمس باليد ، فمن أدعى الرغبة في شيء ، ولم يعمل له مع

القدرة وتوفر الأسباب فهو كاذب في دعواه ، أجل ، قد يتخيل أنه يرغب ويأمل ، ولكن هذا وهم وتصور ، إذا لم تتجسم الرغبة في العمل الملموس .

ولست بحاجة إلى القول بأن هـذا هو الرأى العلمي الشائع في هذا العصر ، ولكن لا بد لي من الاشارة إلى أن الدين قد سبق العلم الحديث إلى أنه لا وجود لحقيقة الأنسان إلا في عمله . وعلى هذا يسوغ لنا أن نحكم ونحلف بالعظيم ، حلف أمير المؤمنين أن من يظهر الصلاح والاخلاص للدين والوطن هو كذاب منافق ، إذا لم نعرف صلاحه وأخلاصه في عمله . قال الإمام الصادق : المقيم على الذنب ، وهو يستغفر كالمستهزىء . وقال : المؤمن قليل الكلام كثير العمل ، والمنافق كثير الكلام قليل العمل .

في عام ١٩٥٦ رأينا بعض الحكومات المتسمة بأسم الاسلام تناصر فرنسا وانكلترا واسرائيل ، وتقف إلى جانبهما في مؤتمر لندن ضد مصر في الاعتداء على بور سعيد ، ورأينا الهند تؤيد حق مصر في تأميم القناة بهذا المؤتمر ، مع أن الهند ليست اسلامية ، ولكنها عبرت بعملها هذا عن ايمانها بحق كل شعب بحريته واستقلاله ، كما أن تلك عبرت بموقفها العدائي عن تنكرها لهذا الحق ، ولم يكن للأسماء والمظاهر من أثر غير الكذب والخداع .

الأمن والعدل

« قال : ثلاثة اشياء يحتاج اليهـا جميع »
« الناس . الامن والعدل والخصب .... »

قال بعض الكتاب من الشباب : ان الدين في طريق الزوال ، وسيموت كما مـاتت الأساطير والخرافات أي أن لفظة الدين ترادف لفظـة الاسطورة والخرافة . بزعمه .

ونحن نؤمن بأن الدين الذي ينادي به تجار الحروب ، والعاملون للسلب وافقار الشعوب ، سيموت لا محـالة ، اما دين محمد وأهل بيته ، أما الذي يقف مع من يعمل ويناضل من أجل العدل والأمن والخصب فانه باق ببقاء السموات والأرض .

هذه هي دعوة والاسلام ومطلبه وغايته ، الايمـان بالحق ، والعمل للامن والعدل والخصب ، ولا خـير في العلم والفلسفة ، ولا في الحكم والسياسة ، ولا في الأفـلام

والصحافة ولا في أى شيء إذا لم يحرر الانسان من الخوف والظلم والفقر .

أن أرقى الدول اليوم تحـاول أن تضع قوانينها على هذه الأسس الثلاثة . فهي وحدها تحل المشكلات الاجتماعية وتستأصل الأدواء من جذورهـا ، فبالخصب يقضى على الحاجة والعوز ، وبالامن توجه ميزانيات الدول إلى الحقل والمدرسة والمصنع ، والمستشفيات ، وبالعـدل تصان الحقوق . وتنظم الحياة . ما أعظم الاسلام ، وانفعـه من دين .

ولقد شعر الناس في كل مكان انهم بحاجة إلى الأمن فعقـدوا المؤتمرات ، ورفعوا الأصوات مطالبين بتحريم الأسلحة والحروب الذرية وغـير الذرية ، ولم يستطع الاقطاب تجاهل أصوات الملايين ، فاضطروا إلى أن يفكروا مكرهين أو مختارين بعقد ميثاق للسلم ، أو تحريم السلاح الذري تمهيداً لنزع السلاح الشامل .

ولست أجد من هذه المناسبة لأبين حقيقة ربما خفيت على كثيرين :

لقد عرفت اناساً يتطلعون إلى الأمن والعدل والخصب لجميع الناس ويندفعون إلى الخير بفطرتهم ، ومقتضى دينهم وتربيتهم ، ويتمنون أن لا يظلم أحد أحداً ، ولا يتحكم

انسان بانسان ، وأن يعيش في أمن ورخاء ، وأن يبتدىء الانتاج من المعمل ، وينتهي إلى الاسواق والبيوت ، لا إلى ميدان الحرب والقتال ، حيث تلتهمه النيران ، وعشرات الملايين يلتهمهم الجوع يتلهفون ويلهثون وراء الغذاء والكساء .

أحب هؤلاء الطيبون الأمن والعدل حب مبدأ وايمان ودين واخلاص في ظرف ينقسم فيه العالم إلى كتلتين غربية وشرقية تختلفان نظاماً وسياسة ، وتضم الكتلة الغربية تجاراً، وأرباب مصانع يعملون للربح ، ويسيطرون على الحكم ، ولا يشبعهم إلا تكديس الثروات في خزائنهم وتسرب الأموال إلى بنوكهم من كل حدب وصوب ، وبديهة أن نظاماً يشجع الاستغلال والاحتكار لا يمكن أن يحيا ويستمر إلا بالحرب ، أو الاستعمار ، أو بهما معاً ومن هنا رأينا بعض الدول الغربية تؤيد فكرة الحرب، ولما رأت الشعوب ضد هذه الفكرة اخترعت الحرب الباردة ، ليظل الانتاج متجهاً إلى المعركة لا الى المطبخ .

أما الكتلة الشرقية فقد رأيناها تعارض فكرة الحرب ، وقد يكون الباعث لها على ذلك مجرد العداء للغرب ونظامه الرأسمالي ، لا حباً بالسلم ، وقد يكون رغبة في توجيه ثروتها إلى سد حاجاتها الضرورية ، لا إلى الآلات الجهنمية وقد يكون غير ذلك من الدوافع والبواعث السياسية ، وسواء

أرادت الحق أو الباطل فالمهم أنها تعارض فكرة الحرب .

وهنا يلتقي الطيبون أنصار **« الأمن والعدل والخصب »** مع محبي السلم ، ويفترقون عن تجار الحروب ، ولكن جاء هذا الافتراق ، وذاك اللقاء صدفة من غير قصد ، ولو أن من عمل للسلم عمل للحرب لانعكست الآية ، والتقى الناس معه دون سواه ، إذن لم تكن مناصرة الناس للأمن **والعدل بغضاً بالغرب** ، ولا حباً بالشرق ، وإنما إيماناً **وإخلاصاً لله والصالح** العام .

هذي هي الحقيقة التي تثبت نفسها بنفسها ، ولكن المغفلين يجهلونها ، وأرباب الأهواء يتجاهلونها ، ويكيلون التهم جزافاً لأنصار العدل والفضيلة ، وهم إذ يفعلون ذلك يناصرون الظلم والعدوان من حيث يريدون أو لا يريدون . ومهما يكن فإن الذين لا هدف لهم إلا تحقيق الأمن والعدل والخصب سيستمرون في طريق هذه الأمنية تقرباً إلى الله ، ورغبة في الخير لا يثنيهم قيل السفهاء ، ولا تهم الادعياء .

ومرة ثانية نكرر القول : إن حب الخير بدافع الدين والعقيدة شيء ، ومناصرة الكتلة الشرقية على خصومها بدافع السياسة شيء آخر . إن ديننا نحن المسلمين وتاريخنا وتراثنا يفرض علينا أن نعمل للأمن والعدل والخصب ، وأن نتقبل ونتعلم من القريب والبعيد كل ما ينتفع به ، ويؤدي بنا إلى غاية نبيلة ، وأن نرفض كل ما يتنافى مع

عقيدتنا ومقدساتنا وتقاليدنا شرقياً كان أو غربياً .

وبالتالي ، فهل الأمام جعفر الصادق من أنصار الكتلة الشرقية ؟ ! ..

أخبرني من تظهر عليه دلائل الصادق أن رجلاً أخبره بأن بعض السفارات تخصص مبلغـاً من المال للتجسس ، ومبلغاً آخر تستأجر به أفراداً ، وتسمى لهـم أشخاصاً ، وتأمرهم بالتشهير بهم وافتراء الأكاذيب عليهم ، وبهـذا ترمي هدفين بحجر واحد ، إثارة الشبهات حول أعـداء الاستعمار ، وتفريق الصفوف ومنعها من التكتل ضد الباطل .

الشيعة والتقوى

« قال : ان الله جمع مـا يتواصي بـه »
« المتواصون مـن الاولين والآخرين فـي »
« خصلة واحدة هي التقوى ، قال عز وجل: »
« ووصينا الذين اوتـوا الكتاب من قبلكم »
« واياكم ان اتقوا » فبالتقوى جماع كـل »
« عبادة صالحة ، وبها وصل من وصل الى »
« الدرجات العلى وعاش من عاش مع الله »
« بالحياة الطيبة ، والانس الدائـم ، قال »
« سبحانه : « ان المتقين في جنات ونهر في »
« مقعد صدق عند مليك مقتدر ... وقال »
« الامام الباقر : والله ما شيعتنا الا مـن »
« اتقى الله واطاعه ... وقال الامام علي : »
« التقوى رأس الاخلاق ... »

وعن جابر الجعفي ، قال : خدمت الإمام محمد الباقر ابن علي بن الحسين ثماني عشرة سنة ، ولما أردت الخروج ودعته ، وقلت له :

أفدني يابن رسول الله .

قال : أبعد ثماني عشرة سنة يا جابر ؟ !

قال جابر : نعم ، يا سيدي ، انكم بحر لا ينزف ، ولا يبلغ قعره .

قال الإمام : بلغ شيعتي عني السلام ، وأعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله ، ولا يتقرب إليه أحد إلا بالتقوى، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا ، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا . جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون .

ويتبين معنا من هذه الأقوال أن معنى الدين والأخلاق والتشيع عند أهل البيت يرجع إلى شيء واحد ، إلى التقوى ووازع الأعمال الصالحة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ الشيعة ، وتراجم رجالهم وجدنا أنهم كانوا يعرفون بالإخلاص والتضحية ، والتواضع والخشوع ، والثورة على الباطل وأهله ، والأمانة والوفاء ، وذكر الله والعبادة ، وتلاوة القرآن والتهجد والمناجاة والسخاء وتعهد الإخوان والجيران ، وصدق الحديث ، وكف الأذى عن الناس .

اقرأ التاريخ ، فإنك واجد من الشيعة في كل عصر رجالاً تتمثل فيهم عظمة الدين والخلق الكريم ، ومن أجل ذلك تنكروا للسلطان الجائر ، فمنهم من ثار عليه بالسيف ، ومنهم من هرب منه ، ومنهم من امتنع عن التعاون معه بالرغم من المغريات ، لقد أبى الشيعة في جميع الأدوار والعهود أن يتحالفوا مع السلطة ، كما تحالف غيرهم ، وهذا هو السر في ابتعاد علماء الدين — على وجه

الإجمال – عن الدولة ورجالها ووظائفها . ان اعتزالهم عن الحكم والحكومـات إن هو إلا امتداد لتاريخهـم وسيرة أئمتهم وسلفهم .

كتب المنصور إلى الإمـام الصادق : لمَ لا تغشانـا كما يغشانا الناس ؟

فأجابه الإمام : ليس لدينـا شيء من الدنيـا نخافك عليه ، وليس لديك شيء من الآخرة نرجوك به .

فكتب إليه المنصور ثانية : تصحبنا لتنصحنا .

فأجابه الإمام : من أراد الآخرة لا يصحبك ، ومن أراد الدنيا لا ينصحك .

العزة لأهل الحق

« قال : ما ترك الحق عزيزا الاذل ... »
« وقال الامام علي : الغالب بالشر مغلوب »

ان العزة والكرامة لأهل الحق في منطق الدين والعقل، ولا كرامة لمبطل كائناً من كان .

وقد يقال : ليس من شك أن الأديان لا تقيم وزناً لغير المحق ، ولكن أي جدوى في ذلك طالما الناس لا تكرم إلا أهل المناصب والثروات ، وتسير في ركاب الاقوياء ، أما الحق فيكرمه الفلاسفة والكتاب في أوراقهم ، ويعظمه الوعاظ على المنابر ، ويصوغه المشترعون مواداً في القوانين ، ولا شيء غير ذلك ، فلم نرَ واعظاً ولا فيلسوفاً ولا مشترعاً ولا أديباً يعمل بالحق إذا خالف هواه ، وأمن العاقبة ، إذن فقول الإمام ما ترك الحق عزيز إلا ذل أراد به الذل في الآخرة ، لا في الدنيا .

الجواب :

اولاً : ان الكرامـــة الأخروية هي الكرامة الحقة ، أما وجاهة الدنيا فحلم زائل ، ويجب أن يخشاها العاقل ، لأنها – في الغالب تؤدي إلى الهلاك ، وتبتعد بصاحبها عن مواطن الحق . العدل .

ثانياً : ان الذين يكرمون المبطلين من أهل الجاه والمال هم أشرار الناس الذين يبيعون دينهم وأوطانهم لكل من يدفع الثمن ، أما الأشراف فهم الذين ثاروا في كل جيل على الحكام الظالمين وعلى المترفين المرابين ، واستشهدوا في سبيل الحرية والإنسانية .

ان الحـق هو المثل الأعلى عند الأبرار ، ولا وزن في نفوســـهم للجاه والمال ، فالغالب بالشر مغلـوب ، وان طوقته المبطلون بالسلاسل والأغلال .

قال الصحابـي الجليل عمـــار بن ياسر ، وهو يحارب معاوية مع الإمام في صفين : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق ، وأنهم على باطل .

وما نسيت هذه الكلمة منذ قرأتها ، وما أثر في نفسي شيء مما قرأت وسمعت ورأيت أكثر منها . كل شيء قـد تحقق لعمار ما دام محقاً .. فليس المهم عنده أبداً أن ينتصر على خصمه ، وإنمـــا المهم أن يكون محقاً وكفى .. ان

الرابح الظافر من سلم له دينه وإيمانه ، أما الحياة فهي إلى زوال ، ان طال الأمد .

كتب معاوية إلى الإمــام يعيره بأنه قيد إلى بيعة أبـي بكر ، كما يقاد الجمل المخشوش .

فأجابه الإمام : قلت : اني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايـع ، ولعمر الله لقد أردت أن تــذم فمدحت ، وأن تفضح فانفضحت ، ومـا على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه ؛ أو مرتاباً في يقينه ، وهذه حجتي عليك وعلى غيرك .

المشورة

« قال : لا تشر على من استبد برايه ولا على »
« وغد ، ولا على متلون ، ولا على لجوج ، »
« وخف الله في موافقة هوى المستشير ... »

من استبد برأيه لا يصغي إلى غيره ، والوغد واللجوج لا رأي لهما ولا ينتفعان برأي ، أما المتلون فلا يثق بأحد قياساً للناس على نفسه ، واني لأعرف أفراداً لا يتصورون الصدق والإخلاص في مخلوق ، وان قامت الأدلة والبراهين، لأن ذلك مستحيل في حقهم فهو إذن مستحيل في حق غيرهم أيضاً ..

يحكى أن رجلاً كان ينبش القبور ، ويسرق أكفان الموتى ، وعندما قرب أجله أوصى أولاده أن يحرقوه بعد الموت ، كي لا يسرق اللصوص كفنه ، كما كان يفعل هو .

أما موافقة هوى المستشير فإنها خيانة لمبدأ الحياة والإنسانية ، فمن سكت عن المخطيء ، ولم يواجهه بخطئه ،

ويدحض آراءه المغلوطـــة فقد أساء إليه وإلى المجتمع إذا ظن فيـه الخير والهداية . قال الإمام الصادق : من رأى أخاه على أمر يكرهه فلم يردعه عنه ، وهو قادر عليه فقد خانه .. وما لقي العبد خالقه بعمل أفضل من النصح لله في خلقه .



العلم والعمل

« قال الامام الباقر ابو الامام الصادق : »
« لا يقبل عمل الا بمعرفة ، ولا معرفة الا »
« بعمل ، ومن عرف دلتـه معرفته على »
« العمل ، ومن لم يعرف فلا عمل له ... »

يرى البعض أن مفهوم العلم مستقل عن العمل ، وانه لا رابط بينهما في الخارج ، فمن الممكن أن يكون الأنسان عالماً إذا حفظ كلمات العلماء ، واستطاع أن يحدد بعض المفاهيم ، ويقول : هـذا حكم العقل والمنطق ، ولو لم يصدر عنه أي عمل بحيث يكون هو والجاهل سواء من الناحية العملية .

أما الإمام فإنه يربط بين المعرفة والعمل ، ويتخذ من كل منهما مقياساً حقيقياً للآخر ، وهـذا تعبير ثانٍ عن النظرية القائلة بأن المعرفة لا تنفصل عن النشاط العملي .

ولو قال هذا القول طالب من طلاب هذا العصر لما كان في قوله أية غرابة بعد أن تدخل العلم في كل كبيرة وصغيرة في حياتنا العامة والخاصة ، اما أن تقال هـذه الحقيقة في عصر لا صناعة فيه إلا باليد ، ولا زراعة إلا

على الحيوان ، ولا مواصلة إلا على الجمل وما اليه ، اما أن تقال هذه الحقيقة منذ ١٢ قرناً أو أكثر فان قائلها ليس من رجال الجيل القديم ، ولا الجيل الحديث فحسب بل يعيش في كل عصر وجيل . ان العلم ، أي علم إذا لم يمد الانسان بالقدرة والحيوة فهو عقيم في نظر أهل البيت.

ولا بد من التنبيه إلى أن العمل الذي أثنى عليه الإمام، وجعله مقياساً للعلم انما أراد به العمل الذي يعود على الانسانية بالخير والمنفعة ، أما العلم الذي يصنع قنابل الهلاك والتدمير بالجملة ، ويسوق الالوف إلى المصانع والمناجم تحت الأرض ، ويعرض حياتهم للخطر من أجل اصحاب الملايين ، أما هذا العلم فالجهل خير منه الف مرة [1]

---

(١) قرات فيما قرات ان بعض الآلات الحربية يبلغ وزنها ٤٧ طنا ، وان ثمنها بلغ اكثر من وزنها ذهبا خالصا .

التسول

« قال : لو عرف الناس ما في المسألة لم »
« يسأل احد احدا ..... »

يرى الإمـــام الصادق أن التسول قبيح بطبعه ، وان السؤال ذل ، ولو أين الطريق كما قال جده أمير المؤمنين. وقد نهى الرسول عن التسول باساليب شتى .

قال : اتخذ الله ابراهيم خليلاً لأنه لم يرد أحـــداً ، ولم يسأل غير الله عز وجل ، وروي عنه أنه ضمن لجماعة من الانصار على الله الجنة إذا لم يسألوا أحداً شيئاً وجاءه رجل ذات يوم ، فقال : يا رسول الله علمني عمـــلاً لا يحال بينه وبين الجنة ، فقال له : لا تغضب ، ولا تسأل الناس ، وأرض لهم ما ترضى لنفسك . وقال : من استغنى اغناه الله ، ومن فتح على نفسه باب المسألة فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر لا يسدها شيء. ان يد السائل هي السفلى إلى يوم القيامة .

وقال الإمام الصادق : ما من عبد يسأل النـــاس من غير حاجة ، فيموت حتى يحوجه الله اليها ، ويثبت له النار . وقال من سأل من غير فقر فانما يأكل الجمر ..

من سأل الناس ، وعنده قوت ثلاثة أيام لقي الله ، وليس في وجهه لحم .. وقال : ليس من شيعتنا من يهر هرير الكلب [1] ويطمع طمع الغراب ، ويسأل الناس بالكف .

ولنا أن نستنتج من هـذه الأقوال أن التسول يذهب بالكرامة ، وانه ضرر على المجتمع ، وعنوان لانحطاطه وتأخره .. أن الانسان خليفة الله في أرضه ، وأمينه على دينه ، وحامل سره ، اودعه من القوى والأسرار مـا يجعله أشرف وأعظم من الشمس والقمر ، ومـن الكون بأسره ، هذا العظيم الشريف يمد يد المذلة ، ليلتقط أوساخ الناس وفضلات الموائد !.. لذا رأينا الحكومات الصالحة تعمل جاهدة للقضاء على التسول وتوجد العمل لكل قادر ، وتضمن العيش لكل عاجز .

وقد يتساءل : إذا كان التسول مذموماً وقبيحـاً في الدين ، فكيف حث الاسلام على الصدقة ، ونهى عن رد السائل المتسول ؟! اليس هذا تشجيعاً للرذيلة ، وأغراء بالقبيح ؟! .

الجواب :

ان الاسلام لم يأمر بالصدقة المستحبة كعـلاج للفقر والعوز ، بل لسد حاجة مؤقتة لا يمكن سدها بغير العطف

---

(1) المراد انه ليس بسفيه . يقال : هلك من لا هرار لـه . اي من سفيه له .

والاحسان ، وماذا يصنع المريض الذي لا يجد الآن ثمن الدواء ، والجائع الذي لا يجد الرغيف ؟! مــاذا يصنع هذا المسكين إذا لم يجد المحسن ؟! هل ينتظر حتى توجد المشاريع ، وتخصص الميزانيات ، وتتغــير الأوضاع والقوانين ؟! .

ولنفترض ان سفينة تحطمت ، وأوشك ركابهـا على الهلاك ، فهل نبادر إلى اسعافهم ، والعمل على خلاصهم من الغرق ، أو نعرض عنهم ، وننصرف إلى صنع سفينة أمنع وأقوى من التي تحطمت ؟!

وهكذا شأن الصداقة المستحبة أشبه باسعاف الغريق . وبالتالي فإن الاسلام إذ ينعي على التسول فانما ينعي على الاوضاع التي يتولد منها الفقر والعوز والسؤال .

والغريب أن المتسول يسأل الناس الحافاً بأسم الدين ، والنبي وأهل بيته ، ويستشهد بأقوالهم في مدح المتصدق ، ثم يتجاهل مــا قالوه في ذم المسألة والسائل !.. والبعض يسأل الناس باسم جده علي . وعلي أبى أن ينزل ضيفاً على أحــد الانصار في المدينة يوم الهجرة ، كما فعــل المهاجرون جميعاً ، وعمل عند يهودي يسقي بستانه بثمرة واحدة عن كل دلو !...

وغريبة الغرائب أن يوجد من المتسولين في بــلد نبي الرحمة ما لا يوجد في أي بلد آخر ، هذا ، والذهب ينبع من أرضه بلا حساب ولا نهاية ..

عن الإمام الصادق عن آرائه
أن النبي أوصى علياً بوصايا عديدة ،
منها قوله :

ترك الشر فضيلة

« يا علي افضل الجهاد من اصبح لا يهم »
« بظلم احد ... ان الله احب الكلب في »
« الصلاح ، وابغض الصدق في الفساد ... »
« ومن ترك الشر لغير الله . سقاه من »
« الرحيق المختوم . فقال علي : لغير الله !. »
« قال : نعم ، والله صيانة لنفسه يشكره »
« الله على ذلك يا علي ثلاثة لا تطيقها هذه »
« الامة : المساواة للاخ في ماله ، وانصاف »
« الناس من نفسه ، وذكر الله كل حال »
« وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا »
« اله الا الله والله اكبر ولكن اذا ورد على »
« ما يحرم عليه خاف الله عز وجل وتركه .. »

ونستنتج من هذه الوصية الحقائق التالية :

١ ـ ليس في الأخلاق حقيقة مطلقة ، ومبدأ ثابت لا يتغير ولا يتبدل مهما تكن الظروف والنتائج ، بل كل ما يترتب عليه الخير يكون فضيلة ، وكل ما يترتب عليه

الشر يكون رذيلة ، فالصدق حسن ما دام نافعاً ، والكذب قبيح ما دام ضاراً ، فإذا ما أضر الصدق ، ونفع الكذب انعكست الآية . ومن هنا قال الفقهاء : يجوز الكذب إذا توقف عليه ردع الظالم عن ظلمه ، ويحرم الصدق إذا أدى إلى الفتنة والنميمة ، أو هلاك نفس بريئة ، ومثلوا بما لو طاردت السلطة المعتدية أحد المصلحين ، واختفى عنها فراراً من البغي والعدوان ، فعلى من يعلم بمكانه أن ينكر معرفته بــه ؛ لو سئل عنه ، قال الإمام الصادق : من سئل عن مسلم فصدق ، وأدخـــل عليه مضرة كتب من الكاذبين ومن سئل عن مسلم فكذب ، فأدخل عليه منفعة كتب عند الله من الصادقين .

٢ ــ أن أي عمل فيه شيء من الإنسانيــة فهو محبوب عند الله ، سواء أقصد الفاعـل ثواب الله أو لم يقصد ، لأن الخـــير ينصرف بطبعه إليه سبحانه ، فمن ترك الشر لذات الشر ، وتجرد عن أنانيته فقد أرضى الله عن نفسه ، واستوجب الشكر ، تمامـــاً كمن يدفع الحق لذات الحق لا خوفاً ولا طمعاً .

قال غاندي : « ان الله أعظم ديمقراطي عرفه العالم » فليس من الضرورة لأن تكون صالحاً أن تنوي امتثال أوامر الله ونواهيه فيما تفعل وتترك ــ في غير العبادات طبعاً ــ فكل من سار على طريق الخير والإنسانيــة فقد سار على

طريق الله سبحانه ، هذا مع العلم بأن الجاحد لا يستأهل الثواب يوم الحساب ، كما فصلنا ذلك في كتاب « **الآخرة والعقل** » .

أما قوله : « أفضل الجهاد من أصبح لا يهم بظلم أحد » فهو أبلغ تعبير عن فداحة الظلم ، وأنه خطيئة لا يعد لها شيء .

٣ ـ ان التسبيح والتهليل ، والصيام والصلاة ، كل ذلك ، وما إليه لا يجدي عند الله شيئاً إذا لم يتورع المرء عن المحارم ، ويكف عما يعرض له من الشهوات . قال الإمام الصادق : من أحب أن يعلم ما يدرك من نفع صلاته ، فلينظر ، فإن كانت قد حجزته صلاته عن الفواحش والمنكر فإنما أدرك من نفعها بقدر ما احتجز .

وروي أن نبي الله موسى مر برجل ، وهو ساجد ، فتركه ومضى ، ثم عاد فوجده ساجداً ، فقال له موسى : لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها . فأوحى الله إلى موسى : لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبلته حتى يتحول عما أكره إلى ما أحب .

وإذا كان الهدف من العبادة طاعة الله فإن ترك القبائح والمحرمات من أفضل الطاعات ، بل ليس من الطاعة في شيء أن تعبد الله فيما لا يتصادم مع هواك ، ثم تتجاهل

ارادته فيما لا يتفق مع ما تشتهي وتريد . ان ابليس سجد سجدة واحدة أربعة آلاف سنة ، كما جاء في الحديث ، ولكن أبى أن يسجد لحظة واحدة لآدام ، لأن هذا السجود لا يتفق مع غروره وكبريائه . ومن هنا قال الإمام الصادق لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، فإنه شيء قد اعتاده ، فلو تركه استوحش ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه واداء أمانته .



العلم والعقل والنفس

« عن الامام الصادق ان النبي ص : قال : »
« العلم رائد ، والعقل سائق ، والنفس »
« حرون ... »

لا يكون العلم رائداً بالمعنى الصحيح إلا إذا كشف عن الواقع ، فالأفكار التي ترتسم في ذهنك من القراءات والدراسات وغيرها لا تسمى علماً إذا لم تكن انعكاساً عن الواقع . ومن هنا قال أهل المنطق : ان الدليل الذي يثبت الواقع يسمى دليلاً علمياً ، أما الذي لا يثبته فيسمى جدلياً أو سفسطائياً أو شعرياً .

أما العقل فإنه الداعي لعمل الخير ، والزاجر عن الشر ولكن النفس كثيراً ما تتغلب على العقل ، وتندفع مع رغباتها غير صاغية لصوت العقل ودعوته . أن العاطفة تلعب دوراً رئيسياً في أفعالنا ، أما العقل فدوره ثانوي ، وكذلك الدين .

لذا قال الإمام : والنفس حرون .. ان أثر العقل

يتجلى في الخطب والنصائح ، والمقالات والكتب ، أما في الأفعال فأثره ضئيل جداً ، والسلطان علينا للعاطفة ، وكثير من الناس يعتقدون أن أفعالهم من وحي العقل والدين ، وهؤلاء المساكين قد ذهبوا ضحية الجهل ، كما ذهبوا ضحية الأهواء ، وفسروا الميول والشهوات بمنطق العقل والدين .

وللإمام الصادق كلام غير هذا ، يدل بصراحة على أن من لا يختار الأفضل لا عقل له ، فقد سأله سائل عن حد العقل ، فقال : ما عبد به الرحمان ، واكتسب به الجنان . قال السائل : فالذي كان في معاوية ..

فقال الامام : تلك النكراء .. تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل .

ومن تتبع كلمات الصادق يرى انه يربط مفاهيم الألفاظ بالعمل ، فأية لفظة لا يكون لها مدلول ملموس فهي من نوع الكلام الفارغ ، أو مفسرة بمدلول آخر ، كتفسير عقل معاوية بالشيطنة . فلفظة حق وخير وجمال وعلم وعقل وواجب ، وما الى هذه لها معان قائمة في الخارج تدرك وتوصف بالحس والمشاهدة ، تماماً كلفظة كتاب وقلم . وقد أكد الامام هذا المعنى بعبارات شتى منها قوله : أحسن من الصدق قائله ، وخير من الخير فاعله .

وغريب حقـاً أن يغفل المسلمون شيبهم وشبابهم عن هذه الكنوز العليـا التي كانت في عزهم ومجدهم ، وأن يزعم شاب يدعي الثقافة والوعي انها من مبتكرات العصر الحديث . ومهما تقدم المتعمقون والمتخصصون في هـذا العصر ، وفي كل عصر فإنهم لم يبلغوا شأو أهل البيت في علومهم وأفكارهم ، ولن يستطيعوا أن يأتوا بجديد لا يعرفه الامام علي وأولاده وأحفاده الأطهار . ولو أتيح للقاريء من يمهد له الطريق إلى الكتب القديمة ، ويزيح عنها ستار الغموض والتعقيد ، ويجنبهـا المصطلحات والأغراب ، ويبرزها واضحة ناصعة لعرف الناس من هم أهل البيت .. أقول هذا ، وأنا مؤمن بأنهم لم يكلموا الناس بكل ما لديهم من معارف وعلوم .

السلامة الشاملة

« قال : ان يسلم الناس من ثلاثة كانت »
« سلامة شاملة : لسان السوء ، ويد »
« السوء ، وفعل السوء ... »

هذه السلامة الكاملة الشاملة للأسود والأبيض في الشرق والغرب ، وللثقافة والحضارة في كل مكان وزمان،لا تتم إلا إذا كل إنسان لسانه ويده وفعله عن السوء .

وكأن الامام يعيش في هذا العصر يستمع الى الاذاعات والصحف والنشرات تلفق الأكاذيب والافتراءات ، وتكيل الشتائم لكل من يخالفها فى الرأي ، ويخرج عن طاعة أربابها المأجورين ، وأسيادهم المستغلين ، تخرج الكلمة من فم المذيع ، أو من قلم الصحفي فتبلغ أقصى البلاد ، فيسفك بها دماء النساء والأطفال ، وتنهب بها الثروات والأموال .

قال بعض العلماء : إن ميدان العقل يختص بالمعقولات واليد بالملموسات ، والاذن بالمسموعات ، والبصر في المنظورات ، أما اللسان فيشمل هذه كلها ، ويتصرف فيها جميعاً ، فإن استعمل في النفاق والرياء عم الفساد والبلاء .

وقد شاهدت أفراداً يلفقون أقاويل يرفضها العقل ،

ويكذبها الوجدان والعيان ، بل شاهدت من يكذب نفسه بنفسه، ويقدم الأرقام من أقواله وأفعاله على انه مفتر كذاب .

وقد دل القرآن والحديث على أن الكذاب لا يؤمن بالله . قيل للنبي ﷺ : هل يكذب المؤمن؟! قال: « لا » . ان الله يقول : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ــ النحل ١٠٦ » . وقال : لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه .

ورب قائل : لقد رأينا من يكذب ، ويفتري ، ومع ذلك يؤمن بالله ، ويصوم ويصلي ، فكيف نفى القرآن عنه الايمان ؟!

الجواب :

ان هذا ايمان معار يخيل لصاحبه ، وللناس انه ثابت ، **وقد قال الصادق :**

« من لم يكن فعله موافقاً لقوله فايمانه مستودع » .

وكان معاوية يصلي ، وفي نفس الوقت يموه على أهل الشام بأن علياً كان يترك الصلاة . خرج شاب من جيش معاوية في صفين يضرب جيش علي بسيفه ، ويلعن ويشتم ، فقال له هاشم المرقال : اتق الله ، فإنه سائلك عن هذا الموقف . فقال الشاب : إني أقاتلكم لأن صاحبكم علي بن طالب لا يصلي ..

علي الذي قاتل المشركين ، وعلى رأسهم معاوية وأبوه

من أجل الصلاة ، وقتل ، وهو ساجد لله في محرابه ، علي لا يصلي ، ومعاوية يصلي !..

وقال شمر للحسين يوم الطف : ان الله لا يقبل منك الصلاة .. الله لا يقبل الصلاة من سيد الشهداء ، ويقبل من شمر قتل ريحانة الرسول وشباب أهل الجنة .

وقال ابن زياد : الحمد لله الذي قتل حسيناً ونصر يزيد .. وما أكثر الذين يسيرون على دين معاوية ، ومبدأ شمر في هذا العصر !.

والخلاصة أن سوء اللسان يعم الكذب والغيبة والنميمة والسباب والفحش والاستهزاء ، وما إلى ذلك مما يسيء إلى علاقات الناس بعضهم ببعض ، أما سوء اليد والفعل فيعم السرقة والسلب والنهب والربا والاحتكار والظلم وخنق الحريات والحروب وبيع السلاح وشرائه بقصد العدوان والسيطرة على المستضعفين .

ان هذه الكلمات الثلاث التي نطق بها الإمام تحمل حقائق بعيدة الغور ، يستطيع العارف بأسرارها أن يضع فيها مجلداً ضخماً . ان السلامة الشاملة هي أمنية الشعوب كل الشعوب ، ومن أجلها تتكاتف وتناضل ، وتعقد المؤتمرات ، وستتحقق لا محالة . ستقطع ألسن السوء ، وأيدي السوء، ويقضى على مثيري الفتن ، ومغتصبي الحقوق.

ويقولون : متى هذا الوعد ؟ قل : ان نصر الله قريب .. ألا تستمع إلى الصيحة بالحق ترتفع من كل مكان ! ؟

العلم والخير

« عن الصادق ان النبي (ص) قال : العلم »
« رأس الخير كله ، والجهل رأس الشر كله »

لا أريد أن أشرح هذا الحديث بما للعلم من منافع ، وما فيه من قوة رافعة للحياة في شتى ميادينها ، وأنه سجل للإنسان عظمة ما كان ليبلغها لولا العلم ، هذا ، وهو بعد في أول الطريق يبتديء دائماً من حيث انتهى ، فمن الأرض إلى القمر ، ومنه إلى الشمس ، ومنها إلى المريخ ، ومنه إلى ما لا يحده خيال ، ولا نشك أنه سيتحكم في طاقة جميع الكواكب ، كما تحكم بقوى الأرض ، وسخر امكانياتها لنعيمه وسعادته ، لا أريد أن أبسط القول في شيء من ذلك ، لأنه لا يكشف للقاريء عن جديد .

وإنما أريد التنبيه إلى هذا الربط بين العلم والخير ، بين العلم والقيم الروحية ، فالإسلام بموجب هذا الحديث يرى أن كل ما يصلح به النبات ، ويثمر به الشجر ، وتكثر به المواشي والدواجن فهو خير .. وان تقدم الصناعة في

زيادة للغذاء والكساء ، وتوزيعها على المستهلكين خير .. وأن معرفة الأمراض ، وكيفية علاجها والوقاية منها خير .. وأن تسهيل المواصلات ، وتيسير نقل السلع من بلد إلى بلد خير .. كل هذه وما إليها مما يسد حاجة من حاجات الإنسان ، ويخفف من أتعابه وأوصا به فهو خير في عقيدة الإسلام . إذن الأغنياء بالعلم وأدواتة الفنية هم الأغنياء بالمثل والقيم الروحية إذا لم يحيدوا بالعلم عن طريقه الأصيل .

إن التفسخ والانحطاط الخلقي .إنما يكون بالسرقة والاغتيال والرشوة والدعارة ، وهذه غالباً ما يكون سببها الفقر والعوز ، وبالعلم يمكن التغلب على عواقب الفقر وشروره .

إن مصائب الناس لا يزيلها العطف والصدقات ، ولا النصائح والمواعظ ، ولا بركة المعممين والمقلنسين ، ولا سياسة المتزعمين ، وأدب المتأدبين ، وإنما يزيلها العلم ، ومن هنا قال الرسول الأعظم : « **العلم رأس الخير كله** » .

وغريب جداً أن يتخوف الفلاسفه الأخلاقيون في هذا العصر من تقدم العلم ، ويقولون : ان ارتقاءه قد مكن للإنسان قوة عجيبة جعلته يستخف بجميع القيم الأخلاقية التي حفظت المعالم المدنية ، والحضارة الإنسانية ، ويصح هذا القول إذا كان العلم محتكراً في يد الأشرار المستعمرين ،

أما وقد أصبح العلم موزعاً بين القوى ، والوعي الإنساني يزداد يوماً فيوماً فالحضارة والمدنية في حصن حصين ، وعما قريب سيقضي هذا الوعي على الذين يحاولون الانحراف بالعلم عن طريقه القويم ، لقد وجد العلم ليقضي على آلام الإنسان ، ولم يوجد الإنسان ليقضي عليه العلم . ان العلم خير ونور ، فإذا حاول منحرف أن يبتعد به عن هذه الحقيقة ، ويستعمله في الضغن والحقد فلا يتسع له المجال طويلاً ، ثم يعود العلم إلى طبعه ووضعه . لذا قال عالم مجرب : **طلبت العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله** .

وبالتالي فإذا قال الرسول الأعظم : العلم رأس الخير فإنما يريد العلم الذي يلبي حاجة الحياة ، يريد العلم الذي يستجيب لرغبات الناس ، ويسهل العسير من مشاكلهم ، يريد من العلم ما أراده بقوله : « **الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه** » . إن الله سبحانه قد عظم شأن العاملين لخدمة الإنسانية ، وقربهم منه ، ورفعهم مكاناً علياً ، قال الإمام الكاظم : « ان لله عرشاً لا يسكن تحت ظله إلا من أسدى لأخيه معروفاً ، أو نفس عنه كربة ، أو قضى له حاجة ، أو أدخل إلى قلبه سروراً . وقال الإمام زين العابدين : « **من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ** » .

ولست أعرف ديناً من الأديان ، ولا مبدأ من المبادىء

اشاد بالخدمـــة الإنسانية كالإسـلام فهي المهنة الشريفة ، والسبيل إلى السعادة الأبدية ، وماذا بعد قول الإمام زين العابدين : « **فبحاجة الله بدأ** » ؟ ! .. وإذا كانت إغاثة الفرد بهذه المنزلة عند الله فمنفعة الملايين أفضل وأعظم .. يقول علماء الأصول : ان للفظ دلالتين . احداهما بالمنطوق ، والأخرى بالمفهوم،فقوله تعالى: « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ » يدل على تحريم التأفف والتبرم في وجـــه الأبوين بنفس اللفظ الذي تنطق به : ويدل الشتم والضرب بما يفهم من الكلام ، لا بمنطوقه ، لأن الضرب أشد من التأفف فتحريمه أولى ، إذن ، كلما كانت الخدمـــة الإنسانية أعم وأشمل كان أجرها عند الله أعظم وأفضل .

الرجل الطيب

« قال : نعم الرجل من اذا غضب لم يخرجه»
« غضبه عن الحق ، واذا رضى لـم يخرجه »
« رضاه الى الباطل ، اذا اقدر لـم يأخـذ »
« اكثر من حقه ... »

اعتاد كثير من الناس أن يقيسوا قيمة الرجـــل بمدى علاقته بهم ، وسلوكه معهم ، فالطبيب من سايرهم فيما يهوون ، وأثنى عليهـم بمـــا يحبون ، ولو كان كاذبـــاً ومرائياً ، والخبيث من خالفهم في الرأي ، ولم يناصرهم على الضلال ، وقال وفعل بما يدين ، فهم المقياس الأول والأخير للحق ، والميزان العادل للفضيلة ، أما كتاب الله وسنة نبيه ، أما العقل والوجدان ، كل هذه ، وما إليها ليست بشيء ما دامت لا تتفق مع ما يشتهون ويريدون .

وما أشبه هؤلاء بفئة من السفسطائيين التي تزعـــم أن الموجودات الطبيعية تتبـع الاعتقاد وجوداً وعدمـــاً ، فإذا اعتقد شخص أن الأرض فوق السماء ، واعتقد آخـر أن الأرض تحت السماء ، واعتقد ثالث أنهما متوازيان فيكون الأمر كذلك بالقياس إلى كل واحـــد ، وتكون الأرض

فوق السماء وتحتها وموازية لها في آن واحد .

أما المقياس الصحيح للرجل الطيب عند الإمام الصادق فهو الذي تتوافر فيه ثلاث صفات :

الأولى : أن يقول بالعدل فيمن ، ويعامله بالحق ، ولو كان ذا قربى ، أما إذا غض الطرف عن سيئاته ودافع عنها ، لأنه رحم أو صديق فقد رفع نفسه فوق العدالة ، وسار على نهج معاوية الذي نصب ولده يزيد خليفة مع عدائه لله وللإنسانية .

الثانية : أن يكون له من قوة الإيمان ورباطة الجأش ما يردعه عن فعل الحرام ، وقول الزور حتى ساعة الغضب ، وأن يتجرع الغيظ حرصاً على دينه ، كمن يشرب الدواء المر أملاً بالشفاء من الآلام ، أما من لم يتورع عن الكيد والدس ، والنيل بالباطل من أهل الفضل أو ممن صارحه بالحق فهو الذي عناه الله بقوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

قال الإمام لولده الحسن : « **وتجرّع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألذّ منها مغبة** » . وقد عمل الحسن بوصية أبيه . لما مات الحسن حمل بنعشه مروان بن الحكم . فقال له الحسين : أتحمل بنعشه ، وكنت تجرعه

الغيظ ؟ ! .. فقال مروان : كنت أفعل ذلك بمن حلمه يوازي الجبال .

الثالثة : أن يعترف بما عليه من واجب ، ويؤديه عن طيب نفس : ولا يطلب ما ليس له ، ويرفع نفسه فوق ما هي . وعلى هذا المقياس فنحن أخبث من عليها ، لأن كل واحـــد منا يطلب أكثر من حقه ، ولا يؤدي بعض ما عليه .

وبالتالي ، فإن الرجل الطيب لا يثنيه عن الحق شيء ، ويسير على وتيرة واحدة في جميـع أدواره ، وأطواره ، في خوفه وأمنه ، ورضاه وغضبه ، وعسره ويسره .

كذب سمعك وبصرك

« قال : المؤمن اصدق على نفسه من سبعين »
« مؤمنا ... وقال له قائل : يبلغني عن »
« الرجل من اخواني ما اكره ، فاسأله ، »
« فينكر ، وقد اخبرني عنه الثقات . فقال »
« كذب سمعك وبصرك عن اخيك ، فان شهد »
« عندك خمسون قسامة فصدقه وكذبهم ... »
« تأول ما تستنكره منه سبعتين تأويلا .. »
« وقال الامام علي : لا تظنن بكلمة خرجت »
« من أخيك سوءاً ، وانت تجد لها من الخير »
« محملا ... »

ما هذا المنطق ؟ ! يكذّب سبعين مؤمناً ، ويصدق واحداً ، بل يكذّب سمعه وبصره ، ويصدقه ، وكيف يُثبت الإسلام الأنساب والأموال ، بل يثبت جريمة القتل بشاهدين ، ولا يثبت كلمة واحدة بسبعين ؟ !

وليس ثمة ما يدعو إلى الغرابة والدهشة إذا علمنا أن الإسلام يحرص كل الحرص على أن يعيش الناس بعضهم مع بعض في أمن ووئام ، وأن يتبادلوا الثقه ، ويتعاونوا على الصالح العام ، ليس من غرابة إذا علمنا أن الإنسان

لا يمكن أن يحل مشكلاته مع غيره إلا بالطرق السلمية ، وترك الوعيد والتهديد ، ولا أن يشق طريقه إلى التقدم إلا بالألفة وترك الحزازات والمشاحنات .

ومن أجل هذا دعا الإسلام إلى التجاهل والتغافل عما يؤدي إلى الشغب والخصام ، وأمر باليقظة والحذر من أصحاب المصائد والمكائد الذين يسعون في الأرض الفساد ، فلا تكون حياتنا كلها تهاون وتسامح ، أو كلها تحقيق وتدقيق ، بل نتسامح مع أخواننا وجيراننا حيث يكون التسامح فضيلة ، ونغضب ، حيث يكون الغضب مرضاة لله ولرسوله .

قال الجاحظ : قد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح الدنيا بحذافيرها في كلمتين ، فقال : صلاح جميع المعايش والتعاشر ملء مكيال ، ثلثان فطنة ، وثلث تغافل . وإذا تأملنا في قول الإمام نجد الجاحظ « المجرب » على حق في قوله : « جمع صلاح الدنيا بحذافيرها بكلمتين » . فليست الدنيا شيء وراء التعايش والتعاشر ، وليس الحق والخير والعدل إلا أن يعيش الناس عيشة ترضي الله ، لا نزاع فيها ولا خصام ، بل تعاون وإخاء ، ولا بد للتعاون من العلم والحزم ، وللإخاء من التساهل والتسامح . يحيط بالإنسان في هذه الحياة حوادث ومؤثرات متنوعة ، فلو سار معها على وتيرة واحدة لكانت حاله كحال من

يصف دواء واحداً لكل داء ! .. أما من يحذر الماكر الخدّاع ، ويتسامح مع الناس البسطاء فإنــه يكون طبيباً وحكيماً في جميع حالاته . قال السيد المسيح : « **كونوا حكماء كالحيات ، بسطاء كالحمام** » .

ما أروع الإسلام ! .. فانه يعطي الدليل في كل حكم من احكامه على أنه دين الحق والحياة ، فلقد أثبت الدماء والأموال بشاهدين فقط ، ليردع المعتدين ، ويصون لكل ذي حق حقه . ولم يثبت كلمة الشحناء والبغضاء بسبعين ، بـــل ولا بالسمع والبصر ، ليبقى على العلاقـــات الطيبـة بين الناس .

الحق يجمع والباطل يفرق

« قال: ان سرعة ائتلاف الابرار اذا التقوا »
« وان لم يظهروا التودد بالسنتهم كسرعة »
« اختلاط ماء السماء بماء الانهار ... وان »
« بعد ائتلاف قلوب الفجار اذا التقوا وان »
« اظهروا التودد بالسنتهم كبعد البهائم من »
« التعاطف ، وان طال اعتلافها على مزود »
« واحد ... »

يجلس اثنان إلى « طاولة » القمار ، وهما في صفاء ووئام ، وقبل أن يفترقا يعلو الصياح ، ويُشهر السلاح ، ويجتمع اثنان أو أكثر على مائدة الخمر والشراب فلا يفترقان حتى ينتهوا إلى شر ، ويختلف اللصوص على توزيع الغنيمة بعد أن تعاونوا على اختلاسها ، وهكذا السياسة فإنها في عصرنا كاللصوصية والخمر والميسر ، تجمع في البداية ، وتشتت في النهاية ، فقد اتفقت الكتلة الشرقية والغربية على هتلر حين أراد أن يبتلع الاثنتين ، ولما انتهى أمره قامت بينهما الحرب الباردة ، ولم تقعد ، واتفقت امريكا وفرنسا وانكلترا على استعمار الشرق ، ونهب ثرواته ، ثم تناحروا فيما بينهم على قسمة المنهوب ، وتسابقوا إلى السيطرة على الأسواق ، إذن لا جامع ولا وحدة بين

المبطلين ما دام كل يهدف إلى منافعه الشخصية .

ان التحالف بدافع المصالح الشخصية لا يعبر عن شيء واقع يمت إلى الصداقة بشبه ، ان الصداقة مشتقة من الصدق ، فهو أساسها ومصدرها ، أما هدفها فالتعاون على ما فيه خير الجميع ، انها دعامة اجتماعية ، وعامل جوهري من عوامل التطور ، فإذا انتجت النفع والربح لطرف ، والتأخر والانحطاط للطرف الآخر ، كما نراه في تحالف بعض دول الشرق مع الغرب ، إذا كان الأمر كذلك فهي سيطرة وتبعية ، واستغلال واستثمار .

لقد كشف أهل البيت عن حقيقة الصداقة ، وحدودها بالمآخاة في الله ، والبعد عن كل شائبة ، فتحب أخاك لا حباً شخصياً ، بل حباً مبدئياً ، تحبه لما فيه من صفات الكمال ، كالعلم والصدق والإخلاص والوفاء ، ويبادلك هذا الحب لنفس السبب ، وعندئذ تكون الصداقة محكمة الأساس لا يتصدع بناؤها ، ولا تنفصم عروتها ، لأنها متصلة بروح الله اتصال شعاع الشمس بالشمس . وبهذا يتبين معنا السر للصداقات المؤقتة التي تختم بالشر ، وعداوة الدهر ، لقد كانت صداقة شيطانية ، فنجم عنها ما يرضي الشيطان ، ويغضب الرحمان .

وبالتالي ، فما أروع قول الإمام، وان طال اعتلافها على مذود أي معلف واحد ، فإنه يصور النفعيين بأقبح صورة .

السب واللعن

« قال : اذا تلاعن اثنـان فتباعـد منهما ، »
« فان ذلـك مجلس تنفر منـه الملائكة ... »
« وقال : اذا خرجت اللعنة من فم صاحبها »
« ترددت ، فان وجدت مساغـا والا رجعت »
« على صاحبهـا .. وكتب الـى اصحابه »
« اياكم والسب ، فان اللــه يقول : ولا »
« تسبوا الذين يدعون مـن دون اللـه ، »
« فيسبوا الله ... »

وحسبك بهـذا دليلاً على براءة الشيعة من تهمـة السب واللعن ، وقد عثرت على حديث للامام الرضا حفيد الامام الصادق يكشف فيه النقاب عن سر هذه التهمة ، قال :

« ان مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا ، وجعلوهـا على أقسام ثلاثة : أحدها الغلو ، وثانيها التقصير في أمرنا ، وثالثها التصريح بمثالب غيرنا . فإذا سمع الناس الغلو غالوا فينا ، وإذا سمعوا مثالب غيرنـا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا ، وقد قال الله تعالى : وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ » الأنعام – ١٠٨ .

سبوا ولعنوا ، ثم لم يجدوا مبرراً لأنفسهم إلا أن ينسبوا

السب واللعن الى الشيعة كذباً وافتراء . ولسنا نعجب مما نقرأه في الوريقات الصفراء عن الشيعة ، لأننا نعلم أنها بوحي من الأهواء السياسية ، غير أن العجب كل العجب ممن يؤمن بها اليوم ، ويتخذ منها مصدراً لأحكامه وآرائه .

قال رجل من الشيعة للامام الصادق : يا ابن رسول الله ان الناس ينسبوننا الى عظائم الأمور ، وقد ضاقت بذلك صدورنا . فقال له : إن رضا الناس لا يملك ، وألسنتهم لا تضبط ، وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وأولياؤه ؟! ألم يقولوا : إن أيوب ابتلي بذنوبه ، وإن داود عشق زوجة اوريا ، واحتال على اوريا حتى قتله وتزوج امرأته ؟! ألم ينسبوا موسى إلى أنه عنين ؛؟! بل ألم ينسبوا جميع الأنبياء إلى الكذب ، وانهم طلاب دنيا ؟! ألم يقولوا عن مريم بنت عمران : إنها حملت بعيسى من يوسف النجار ، وان محمداً شاعر مجنون ، وإنه هوى امرأة زيد بن حارثة ، ولم يزل بها حتى استخلصها لنفسه ؟! بل ألم يقولوا فى الله سبحانه ما لا يليق بعظمته ؟!

الولد البار

« قال : عقوق الوالدين من الكبائر ، ومن »
« العقوق ان ينظر الرجل الى والديه، فيحد»
« النظر اليهما ، وان يقول لهما، اف ، ولو »
« علم الله عز وجل شيئا أهون منه لنهى عنه»
« يشير الامام الى الآية الكريمة « فلا تقل »
« لهما اف » . وقال له رجل من شيعته : »
« ان لي ابوين على غير ما اعتقد ، فقال : »
« كن برا بهما ، كما لو كانا على ما تعتقد »

كلنا يعلم أن من حق الولد على والده التعليم والانفاق، وان الآباء يلاقون في سبيل أبنائهم أشد الصعوبات ، ولكن الكثير منا يجهل مكانة الآباء ومنزلتهم عند الله ، وقد أفاض أهل البيت في بيان حقوق الأبوين على الأبناء ، ووجوب شكرهم وطاعتهم إلا فيما يغضب الله سبحانه ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

واكتفي هنا بنقل فقرات من دعاء الإمام زين العابدين المذكور في الصحيفة السجادية . وقد روى هذه الصحيفة الزيدية والاثنا عشرية ، وهي أثمن تراث إسلامي بعد القرآن على الاطلاق ، وما قرأها انسان من أي لون كان إلا

نقلته الى اجواء يشعر معها بنشوة لا عهد لأهـل الأرض بمثلها ، ومنذ اطلعت عليها أحسست بدافع قهري يسوقني الى التفكير في كلماتها ، والكتابة عنها ، والدعوة اليها ، ونشرها بين جميع الطوائف ، فكتبت عنها فصلاً في كتاب « مع الشيعة الامامية » بعنوان مناجاة ، وآخر في كتاب « أهل البيت » بعنوان من تسبيحات الامام زين العابدين، وثالثاً في كتاب « الاسلام مع الحياة » بعنوان العز الظاهر والذل الباطن ، ورابعاً في كتاب « الآخرة والعقل » بعنوان الله كريم ، وأهديتها إلى عدد من شيوخ مصر وفلسطين ولبنان ، وإلى غبطة البطريرك المـاروني بولس المعوشي ، ورأيته بعد الاهداء بأيام ، فشكرني على الهدية فقلت له : ما الذي استوقف نظركم فيها ؟ فقال قرأت دعـاء الامـام لأبويه فترك في نفسي أثراً بالغاً .

ومن الذي يقرأ قول الامام : « **اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف : وأبرهما بر الأم الرؤوف ، وأجعل طاعتي لوالدي وبري بهما أقر لعيني من رقـدة الوسنان ، وأثلج لصدري من شربة الظمآن حتى أوثر على هواي هواهما وأقدم على رضاي رضاهما ، واستكثر برهمـا بي ، وان قل ، واستقل بري بهما ، وان كثر** » .

من الذي يقرأ هذا القول ، ولا يترك في نفسه أعمق الآثار ؟!..

يهابهما هيبة السلطان العسوف مع مخالطته لهما ، ودنوه منهما ، وعلمه بأنهما أرأف به من نفسه . إنها هيبه التعظيم والتوقير ، لا هيبة الخوف من الحساب والعقـاب ، هيبة الأبوة التي لا يقدرها إلا العارفون . كانت فاطمة بضعة من النبـي ، وأحب الخلق الى قلبه ، ومع هذا كانت تقول: ما استطعت أن أكلم الرسول من هيبته .

ولا شيء عند الأبوين أغلا وأثمن من بر الابن بهما ، عـلى الرغم من انه وفاء لبعض ما لهما من ديون . إنهما يسعدان بهذا البر سعادة الغارس بثمرات غرسه ، بل سعادة العالم باكتشاف أسرار الكون ، وبهذه السعادة نفسها يشعر الابن البار إذا تأكد من سعادة أبويه به ، ورضاهما عنه ، ثم اقرأ معي هذه الكلمات للامام :

« اللهم وما تعديا علي فيه من قول ، أو أسرفا علي فيه من فعل ، أو ضيعاه من حق ، أو قصرا بي عنه من واجب فقد وهبته لهما ، وجدت به عليهما ، ورغبت اليك في وضع تبعته عنهما ، فإني لا أتهمهما على نفسي ، ولا استبطئهما في بري ، ولا أكره ما تولياه من أمري يا رب ، فهما أوجب حقاً عليّ ، واقدم احساناً إليّ ، وأعظم منة لدي من أن أقاصهما بعدل ، أو أجازيهما على مثل ، أين اذن يا إلهي طول شغلهما بتربيتي ؟! وأين شدة تعبهما في حراستي ؟! وأين اقتارهما على أنفسهما للتوسعة عـليّ .

هيهات ما يستوفيان مني حقهما ، ولا أدرك ما يجب عليّ لهما ، ولا أنا قاض وظيفة خدمتهما .. »

الحق ما كان لك ، والواجب ما كان عليك ، وكلاهما ثقيل الوطأة ، ومن هنا تفسد العلاقات بين الناس ، تقصر فيما يلزمك أداؤه فتمنع مما لك استيفاؤه ، ولكن هذا المنطق لا يجوز تطبيقه بحال على علاقة الابن بالأبوين ، فلو افترض أن الأبوين تعديا وقصرا في واجبك فإن حقهما عليك طبيعي لا يسقطه شيء ، وكبير لا يعادله شيء ، فلقد تحملا الضيق والشدة لتكون في سعة ، والتعب والعناء لتكون في راحة ، والذل والهوان من أجل سعادتك ، وكم رأينا من الآباء – على مكانتهم الدينية – يجرأون على ارتكاب الحرام واقتحام المعاصي من أجل أبنائهم ؟!. وبعد هذا كله يتهم الابن أباه في أمر من أموره !..

إن شباب الجيل المثقف يرون لهم كل حق على الآباء، ولا واجب عليهم لأب وأم ، وأقدم مثلاً واحداً على ذلك من حياة الكاتب الشهير أحمد أمين المصري ، قال في كتابه « حياتي » :

« كنت أمشي على رجلي من بيتي في المنشية الى الأزهر، وأعود من الأزهر ، وأنا أحمل ما يبهضني حمله ، وكان أبي يعلمني في كتّاب ، فأصبحت أعلم أولادي في رياض الأطفال ، ولا يعجبهم أن يركبوا في الدرجة الأولى في في الترام والأتوبيس ، ويطلبون سيارة خاصة ، وكان أبي

يضربني على الشيء التافه الصغير فأحتمل ولا أثور ولا أغضب، فصار أبنائي يغضبون من الكلمة الخفيفة، والعتاب المؤدب، وكنت لا أؤاخذ أبي على حرماني من الضروريات، فصار أبنائي يؤاخذونني على حرمانهم من الاسراف في الكماليات..».

وأولاد أحمد أمين هؤلاء منهم من يحمل شهادة الاختصاص في الحقوق، ومنهم ليسانسيه في الهندسة، وربما كانوا أخف وطأة على أبيهم من كثير من الأولاد. ونحن مع اعترافنا بأن الزمان قد تغير. وأن كل شيء مرده الى القوانين العامة لحركة التاريخ، وأسبابه الاجتماعية فإننا لا نجد سبباً لهذا الغلو الذي نراه اليوم في عقوق الابن لأبيه، ونظره اليه على انه بقرة حلوب، وآلة صماء لتحقق مآربه، لا سبب لذلك إلا الاتكالية، والا ضعف الهمة، والا التأنث والتخنث. لذا نجد العصامية والبطولة في بيئة العوز واليتم حيث لا يجد الأبناء سبيلاً للاعتماد على الآباء. ينعى شبابنا على الجمود والرجعية، وهل من جمود أسوأ من اتكال مخلوق على مخلوق مثله ؟! وهل من رجعية أقبح من التبعية، والسير في ركاب كل من سلب وغلب، والاندفاع مع الأهواء والمنافع الشخصية.

وبالتالي، فإن لفظ الأب يوحي معنى الاحترام والحب، وكل ابن مسئول عن تعظيم أبيه، والاخلاص له أمام الله والناس والضمير.

الشفاعة

« قال : ليس بين الله وبين احد من خلقه »
« ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا من دون »
« ذلــك من خلقــه كلهم الا طاعتهم لــــه ، »
« فاجتهدوا في طاعـــة اللــه ان سركم ان »
« تكونوا مؤمنين حقــا . . . . . . »
« وقال الامام علي : ان محاسن الاخـــلاق »
« صلة بين الله وعباده . . . . »

نقل الشيعة الإمامية عن أئمتهم أحاديث كثيرة بهــذا المعنى تجاوزت حد التواتر ، ومع هــذا نجد من يفتري الكذب على الحق ، وينسب دون خجل ولا حيــاء إلى الشيعة أنهم يعتبرون أئمتهم آلهة أو انصاف آلهة .

ان الشيعة يعتقدون أن العمل الصالـــح هو السبيل إلى مرضاة الله ، وأن الصلة بين الله وعباده محاسن الأخلاق كما قال الإمام علي ، أما الأئمة في عقيدة الشيعة فهـــم المفزع في الدين ، والملجأ في معرفة الأحكام ، والحلال والحرام .

وتجدر الإشارة هنـا إلى أن المسلمين كافة اتفقوا على ثبوت الشفاعة لنص القرآن عليها ، ثم اختلفوا : هل تكون

للعاصين ، أو للمطيعين فقط ؟

قال المعتزلة : ان شفاعة النبي ﷺ تكون للمؤمنين المطيعين فقط ، وذلك بأن يطلب لهم زيادة الثواب ، أما العاصون من المسلمين فلا تنالهم الشفاعة أبداً ، واستدلوا بقوله تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ – غافر – ١٩ » .

وقا الشيعة والأشاعرة والمرجئة : ان رسول الله يشفع للعاصي من أمته ، وقد جمعوا بين ما دل في القرآن على نفي الشفاعة كالآية السابقة ، وما دل على ثبوتها ، كقوله تعالى: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى – الأنبياء٢٩» . جمعوا بينهما بعدم الشفاعة للكفار ، وثبوتها للمؤمنين .

والذي أراه وأعتقده أن النبي ﷺ لا يشفع لمن ظلم إنسانــاً ، واعتدى على حق من حقوق الناس ، ولا لمن خرج عن الإيمان بقوله أو فعل ، ويشفع لمن ظلم نفسه ، وتهاون في حكم من الأحكام بينه وبين ربــه ، ولم يعتد على أحــد أبداً بقول أو فعــل ، ويشهد لذلك الحديث الشريف « لا ينال شفاعتي رجــلان : سلطان عسوف غشوم ، وزنـاء مارق في الديـن » والزاني خــارج عن الإيمان ، كما جاء في الحديث المتفق عليه بين السنة والشيعة ، وهو « لا يزني الزاني حين يزني ، وهو مؤمن ، فــإذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص » .

وقد تكلم علماء المسلمين من السنة والشيعة ، وأكثروا حول معنى هذا الحديث ، وعدوه من المتشابهات والمشكلات ، لأنه يدل صراحة على أن الزاني خارج من الإيمان ، مع أن المسلمين جميعاً يعاملونـــه معامـــلة المسـلم من الزواج والتوارث ، والصلاة على جنازته ودفنه في مقابرهم ، ولم أرَ تفسيراً تركن إليه النفس .

والحقيقة أن من نطق بالشهادتين ، وقال : « **لا إله إلا الله محمد رسول الله** » له اعتباران : أحدهما يعود إلى معاملتنا نحن له في الدنيا . والثاني يرجع إلى معاملة الله له في الآخرة ، أما نحن فيجب أن نعامله معامـلة المسلم من الزواج والتوارث ، ومـا إلى ذلك ، مهما تكـن أفعاله ، ويشهد بذلك معاشرة النبي ﷺ مـع المنافقين المظهرين للإسلام مع علمه بكذبهم ونفاقهم ، وقوله : « **من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله حرم ماله ودمه** » ، أمـا معاملة الله له في الآخرة فحكمه حكم من لم يؤمن بالله ، ولا بالرسول ، ولا باليوم الآخر ، كما صرح الحديث من أن الزاني « خلع عنه الإيمان كخلع القميص » .

وعلى هذا يكون معنى الحديث الشريف أن الزاني مسلم في الظاهر ، له ما له ، وعليه ما عليه في هذه الحياة ، وكافر في الواقع ، وعند الله يحاسب بحسابه ، ويعاقب بعقابه .

شهداء العقيدة

« قال : ان المؤمن لو قتـل ، ثم نشر ، ثم »
« قتل ، ثم نشر لم يتفتر قلبه ... وقال : »
« الحر حر في جميع احوالـه ، وان نابته »
« نائبة صبر ، وان تداكت عليه المصائب لم »
« تكسره ، وان اسر او قهـر ، او استبدل »
« باليسر عسرا ... »

ان تاريخ الشهداء تاريخ عقيدة ، وتمسك بالمبادىء ، ولولا دماء الشهداء لم يكن للإسلام عين ولا أثر ، وهكذا كل عقيدة كتب لها البقاء . قال غوستاف لوبون في كتاب الثورة الفرنسية : لقد ساعد الاضطهاد على انتشار مذهب البروتستان ، ونتج عن قتل كل واحـد اعتناق للمذهب الجديد ، وقد أوجب القتل والحرق بالنار ازدياد عـدد البروتستان أكثر من الكتب والخطب .

ويصح هذا القول في مذهب التشيع . فلولا مذبحـة كربلاء ، واستشهاد حجر بن عدي ، ورشيد الهجري ، وعمر بن الحمق ، وكميل بن زياد وغيرهم وغيرهم لما كان لأهل البيت هذا الولاء الذي تدين به الملايين ، أما

دور العلماء والخطباء في تأييد المذهب فإنه كبير ، ولا شك ، ولكنه يكون أعظم وأبلغ تأثيراً إذا كان تمجيداً لدماء الشهداء ، وتذكيراً ببطولاتهم وتضحياتهم .

ضحى شهداء العقيدة بأنفسهم ، وقدموا رؤوسهم ، ولم يقدموا دينهم ، وما ذاك إلا لأنهم أصغوا إلى نداء الحق أكثر من إصغائهم إلى منافعهم الذاتية ، وأغراضهم الشخصية . أن المنافع تبلى وتزول ، أما الحق فهو ثابت لا يتغير ، وكذلك المؤمنون المخلصون لا تتغير قلوبهم ، وان قتلوا ثم نشروا ، ثم قتلوا ، ثم نشروا ، لأنهم المظهر الصحيح لعظمة الحق ورسوخه ، وتبرز هذه الحقيقة في أكمل معانيها بقول مسلم بن عوسجة للحسين يوم الطف : « **أما والله لو علمت أني اقتل ، ثم احيا ، ثم احيا ، ثم اذرى في الهواء ، يفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك** . ويقول زهير بن القين : « **وددت اني اقتل ، ثم انشر ، يفعل بي هكذا الف مرة ، وان يدفع الله عنك القتل بذلك** » .

والملاحظ أن أصحاب العقيدة والإيمان في كل عصر يلاقون أشد العنت والبلاء من السفهاء الأراذل ، ذلك لأنهم لا يداورون ولا يمارون ، ويجهرون بالحق ، ولا تأخذهم فيه لومة لائم ، ولا شيء أثقل على المبطلين من كلمة الحق وأهل الحق ، فما رأوا محقاً إلا أرغوا وأزبدوا ، وأبرقوا

وأرعدوا ، وملأوا الدنيا صياحاً وضجيجاً ، لأنه لا يباركهم على ضلالهم ، ولا ينسج على منوالهم .

ومن قبل تعرض الأنبياء للنباح والأنياب السامة ، ولأقذر الاتهامات ، فحزنوا وضاقت صدورهم بخصوم لا دين لهم ولا ضمير ، فعزاهم الله سبحانه ، وأمرهم بالصبر وعدم المبالاة ، قال عز وجل مخاطباً نبيه العظيم :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ — الحجر ٩٨ — ٩٩ » ، أي سر في طريقك ولا تكترث ، فشأنك التسبيح والسجود لله ، وشأنهم النهش والنباح ، وكل يعمل على شاكلته .

وخاطبه مرة أخرى بقوله : « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ — الانعام ٣٤ » . فهم لا يكذبون الرسول بالذات ، وليست لهم أية عداوة مع شخصه ، وإنما هم أعداء الحق الذي يؤمن به ، ويدعو إليه . وتعبر هذه الآية بجلاء عن واقع نشاهده ، ونلمسه كل حين ، وتجيب عن تساؤل طالما كررناه بدهشة وحيرة بيننا وبين أنفسنا : لماذا يتعمد « هؤلاء » الإساءة إلينا دون أن نتعرض لهم بسوء ؟ ! فكشفت الآية عن السر ، وأنه عداء الرذيلة للفضيلة ، والجهل للعلم ، والأمانة للخيانة ..

عرفت موظفين يعملان في دائرة واحدة من دوائر الحكومة ، أحدهما مرتش خائن ، والآخر نزيه أمين ، وكان هذا الأمين أثقل على الخائن من قاتل أبيه ، لا يدع الدس عليه ، والكيد له بحال ، لا لشيء إلا لأن وجوده بجانبه يلفت الأنظار إلى مساوئه ، ويسبب افتضاحه واحتقاره .

وهكذا يبتلي الطيبون الأخيار بالسفهاء الأشرار ، وعلى قدر تمسك أهل الحق بالحق وتشددهم فيه يتهيأ ويتعبأ المبطلون والمحترفون ، وبهذا نجد تفسير قول الصادق : « **اشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل** » .

وختاماً أكرر القول مرة ثانية ان ما قدمته إلى القراء في هذه الأوراق لم يعد شيئاً بالقياس إلى آثار الامام الصادق ، وكلماته الموجودة فعلاً بين أيدي الناس ، والمبثوثة في كتب التفسير والحديث والتشريع والأخلاق والسير والتراجم وغيرها ، وان ما ذكرته في تفسير بعض ما نقلت منها ليس شرحاً ولا تفسيراً ، وإنما هو أشبه بالتعليق على الهامش ، أو بتعريف علم تستغرق أبحاثه المجلدات ، تعريفه بألفاظ لا تتجاوز عدد الأصابع ، وبديهة ان الانسان إنما يستطيع الكلام فيما يعلم ، وما خطر علمي حتى يحيط بمقاصد أهل البيت؟!.. وكيف أطمع في بلوغ هذه الغاية ، وأنا على يقين أنه

لو تصدى جميع العلماء – على كثرتهم وتنوع علومهم – إلى دراسة ما ترك أهل البيت من آثار لوجدوا مورداً خصباً وينبوعاً لا ينزف ولا يدرك غوره ، ولأمضوا السنين الطوال في دراساتهم ، وأخرجوا للناس مئات المجلدات في شتى العلوم والمعارف ، ثم لا يبلغون من فيضهم إلا قليلاً. ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من ذهل عن نفسه وجهله بمنزلة علي وأبنائه وأحفاده الأئمة الأطهار ، سلام الله وصلواته عليه وعليهم .



الفهرس